أعلام مبرزون

من الشرق والغرب

ابن بطوطة



دار الشرق العربي

ابن بطوطة

703 ــ 770 هــ

1304 ــ 1369 م

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة

لأعلام مبرّزين من الشرق والغرب

---

1 ـ الإسْكندَر الأكبـــــر	2 ـ هنيبَعـــــــــل
3 ـ أبو العـــلاء المعـــرّي	4 ـ ابـــنُ بطُّوطـــــة
5 ـ ابـــنُ خلــــــدون	6 ـ كريسْتوف كولومبوس
7 ـ وليَـم شكسْــــبير	8 ـ نـابوليون بُونـــابرت
9 ـ ليـون تُولسْـتـوي	10 ـ المهاتما غانْـــدي

كتبها وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

أعــلام مــبــرزون
من الشرق والغرب

ابن بطوطة

703 ـ 770 هـ

1304 ـ 1369 م

دار الشرق العربي
حلـب سـوريـة ص.ب:415
بيروت لبنان ص.ب: 11/6918

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبها وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي
حلب ــ سورية ــ ص.ب: 415

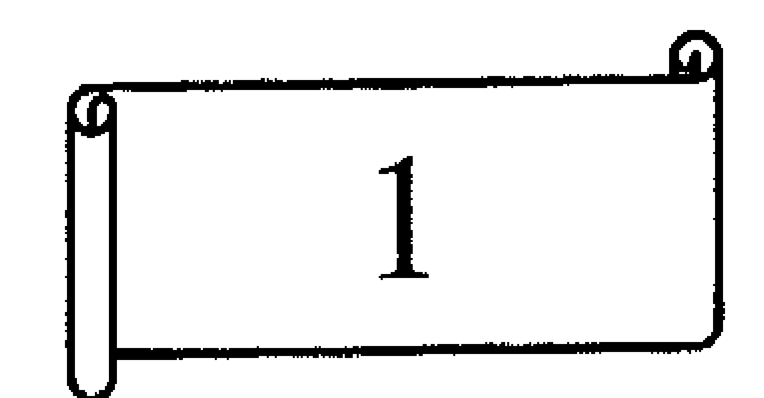
الطبعة الأولى 1998 م - 1419 هـ
الطبعة الثانية 2000 م - 1421 هـ
الطبعة الثالثة 2002 م - 1423 هـ

طبع في : المطبعة الحديثة - حلب

تمهيد

قبل البداية

نشأة ابن بطوطة وتكوينه وشخصيته



في أواخرِ القرنِ السابعِ الهجريِّ كانتْ دولةُ المُوحدينَ في المغربِ العربيِّ قد انْهارَتْ، وقامتْ على أنْقاضِها عِدَّةُ دُوَيْلاتٍ، أقواها **دولْةُ بني مَرينٍ في المغربِ الأقْصى**، وكانتْ مدينةُ فاس عاصِمَتهم، وفي ظِلِّ هذهِ الدولَةِ، في مدينَةِ **طَنْجةَ**، الثّغرِ المغْربيِّ الشماليِّ على مضيق جبَلِ طارِقٍ، وُلِدَ الرّحالةُ العظيمُ **ابن بَطّوطةَ**، **محمدُ**

بنُ عبدِ اللهِ اللَّواتيُّ، نِسْبةً إلى قَبيلة لواتةَ مــن البَرْبرِ، في السابِعِ عشرَ من رجبٍ عام 703هـ، ونشأ في كنَفِ أسْرةٍ عريقةٍ في الاشتغالِ بالعُلومِ الشرعيةِ الإسلاميةِ وتولَّى مناصِبَ القضاء بيــنَ الناس، وترَعْرَعَ محمدٌ في جــوٍّ مــن التَّقْــوى والصَّلاحِ، فدرسَ القُرآن الكريمَ والعلومَ الدينيــةَ وتفقَّهَ فيها، كما تعلَّــمَ الأدب وفُنــون الشِّــعْرِ، والمصادرُ عنْ فترةِ تحصيلِهِ العِلْميِّ لا تُزوِّدُنــا بما يَجعلُنا نتتبَّعُ مراحلَ دراســتِهِ وأخْــذِهِ عــن شُيوخِهِ ومُعلِّميهِ، ولكنّنا من خِلالِ أحاديثِه عــن رِحلاتِهِ التي طافَ بِها في أرْجــاءِ الدُّنْيــا فــي عصرِهِ، وبلغَ فيها مشــرِقَ الأرضِ ومغْربَــها،

نستطيعُ أن نستشِفَّ صُورة عن ثقافَةِ ابنِ بطُّوطةَ وتكوينِهِ العلميِّ والأدبيِّ، وشَخصيتِهِ التي كوَّنتْها تربيتُه خِلال نشأتِهِ، مُنذُ نُعومةِ أظْفارِهِ حتى بلغَ الثانيةَ والعشرينَ من عُمرهِ عامَ 725 هـ وقدْ استوى شابّاً في ريعانِ الصّبا، قادِراً على تحمُّلِ المشاقِّ، مُوطِّناً نفسَه على الارْتِحالِ في طلبِ العلمِ والعِرْفانِ مُتشوِّقاً إلى القِيامِ بفريضةِ **الحجِّ إلى مكَّةَ**، بعزيمةٍ يشحذُها الطُّموحُ والشوقُ إلى المعرِفةِ وارتيادِ المجْهولِ!

كانتْ تربيةُ ابنِ بطُّوطةَ في كنَفِ أُسرتِهِ تربيةً فاضلةً جعلتْ منهُ رجُلاً تقياً ورِعاً مُحِباً لِلعلمِ والعُلَماءِ، والصالحينَ والأوْلياءِ، **ولعلَّ**

لِنشْأتِهِ في مدينةِ طنْجةَ، وهي تُطِلُّ على مينائها الكبير، العامرِ بالسُّفُنِ الكثيرةِ المُتقاطِرةِ إليْهِ من شتّى أرْجاءِ العالَمِ، **أثراً في تعلُّق الفتى بالطّوافِ في الأرضِ**، إذْ كانتْ طنجةُ تغُصُّ بالمَلاحين والرَّبابِنةِ العائدين من رِحْلاتِهِم البعيدة، وفي جُعْبتِهِمْ أقاصيصُ مُشوِّقةٌ عمَّا رأوهُ من عجائبِ الدُّنْيا، يُثيرون بِها دهْشةَ السامعينَ، ويهيجُونَ في نُفوسِهم الشوقَ إلى الارْتِحالِ والسَّفَرِ والتنقُّلِ في أرْجاءِ الأرْضِ.

وهكذا يُتاحُ لنا أن نشْهَدَ انطِلاقةَ ابن بَطُّوطةَ في رحلتِهِ **الطويلةِ التي يقْضي فيها ثمانيةَ وعشرين عاماً**، يذْرعُ خِلالها شرْقَ الأرضِ

وغرْبَها، **ويقطعُ فيها مسافةً تُقدّرُ بمائةِ وعشْرين ألفاً من الكيلومترات**، وقد حاولَ في رحلْتِهِ ألاّ يقْطعَ طريقاً مرّتيْنِ، ليطَّلعَ في كلِّ مرةٍ على جديدٍ، ونجحَ في ذلِك إلاّ فيما نَدر، وفي نهايةِ المطافِ الطويلِ، **أملْى الرحالةُ العظيمُ ذكرياتِهِ عن الرِّحْلةِ، فكتبها عنْهُ محمدُ بنُ جُزيّ، كاتبُ السلْطانِ المرينيِّ أبي عنانٍ**، في مدينةِ فاسٍ، بعدَ عودتِهِ إليها، في كتابٍ سمَّاهُ **(تُحْفةَ النُظّارِ في غرائِبِ الأمْصارِ وعجائبِ الأسْفارِ)** وهو بحقٍ تُحفةٌ ثمينةٌ تتضمَّنُ صُورةً نابِضةً بالحياةِ عنِ الأقْطارِ التي زارَها ابنُ بطوطةَ ووصفَ ما شاهدَهُ فيها، وذكرَ انطِباعاتِهِ عنْها.

2

ويُمكننُا أنْ نُميِّزُ في كتابِ رحلةِ ابن بطُّوطةَ **ثلاثَ رِحْلات** أولاها **الرِّحلةُ الكُبرى** التي بدأهـا من طنْجةَ عامَ 725 هـ وطافَ خِلالها في العـالمِ الإسْلاميِّ ووصلَ إلـى بـلادِ الـرُّومِ والـهندِ والصين، وعادَ إلى طنْجةَ عامَ 750 هـ بعـد رُبْعِ قرْنٍ من التّنقُّـلِ الدائـبِ والتّجْـوالِ فـي الأرْضِ؛ **والرِّحْلَتانِ الأُخْريانِ** قصيرتان: واحـدة تمَّتْ خِلالَ عامِ 751 هـ وزارَ فيـها الأنْدلُـسِ، وواحِدة دامتْ نحوَ سنتيْن زارَ فيـها السُّـودان ووصلَ إلى تمبكْتو، وهِيَ آخرُ رحلاتِـهِ التـي انتهتْ عام 754هـ.

ثمانيةٌ وعشرونَ عاماً من التِّرْحالِ، قطَـــعَ خِلالَها نحواً من مائةٍ وعشرينَ ألفَ كيلو مـــترٍ، ولا يعرفُ تاريخُ الرِّحْلاتِ رحَّالةً اســـتطاعَ أن يَجْتازَ مثلَ هذهِ المسافَةِ قبلَ العُصورِ الحديثـــةِ، وبعدَ عوْدتِهِ إلى وطنِهِ استقرَّ في **فاسٍ** عاصمـــةِ بني مرينٍ، في ظِلٍّ وارِفٍ من عطْفِ **السُّـلْطانِ أبي عِنانٍ** عليهِ، وهو الذي أعْجب بأحاديثهِ عـنْ أسْفارِهِ، وأمرَ كاتبهُ (**ابْنَ جُزَيٍّ**) بأنْ يكتُبَ تلـكَ الأحاديثَ، فأمْلاها ابنُ بَطُّوطةَ عليهِ، حتى فـرَغَ من تسجيلِها عامَ 757 هـ وبقي ابنُ بطُّوطة فـي حاشيةِ السُّلطانِ المَريني إلى وفاتِهِ عام 770 هـ في فاسٍ، مُحاطاً بالتقديرِ والإجْـلالِ، غـيرَ أنَّ

عدَداً من حُسَّاده ومُعانِديْهِ، مِمَّنْ نَفَسُوا عليهِ منزلتَه لدى السلطانِ، كانوا يتّهمونهُ بالكِذْبِ والافتِراءِ في روايتهِ لِما شاهَدَ في رِحْلتِهِ من غَرائِبَ وعَجائِبَ، وقد أشارَ مُعاصِرُه ابنُ خَلْدونٍ إلى ذلك فيما كتبَ عنهُ في مُقدِّمتهِ المشْهورةِ:

"وردَ بالمغْربِ لِعهْدِ السُّلطان أبي عنان من مُلوكِ بني مرينٍ رجُلٌ مِنْ مشيخَةِ (شُيوخٍ) طنْجةَ يُعْرَفُ بابنِ بَطُّوطةَ، كانَ رحلَ منذُ عشرين سنة قبلها إلى المشْرقِ، وتقلَّبَ في بلادِ العراقِ واليمنِ والهنْدِ، ودخلَ مدينةَ دِهْلي (دِلهي اليوم) حاضرةَ ملِكِ الهندِ، وهو السُّلطانُ محمدُ شاه، وكان له منْهُ مكان، واستعْملهُ في

خِطَّةِ القضاءِ بمذْهبِ المالكيّةِ في عملِهِ، ثمَّ انقلَبَ إلى المغْربِ واتّصل بالسُّلطان أبي عنان، وكـان يُحدِّثُ عن شأنِ رِحلَتِهِ وما رأى من العَجائبِ بممالكِ الأرْضِ، وأكثرُ ما كانَ يُحدِّث عنْ دولةِ صاحبِ الهِنْدِ، ويأتي من أحْوالهِ بِما يتعجَّبُ منهُ السامِعون.. **فتتناجى الناسُ بِتَكْذيبِهِ!**".

والحقُّ أنَّ ابنَ خلدونٍ لم يكُنْ أوَّلَ منْ شكَّ في صِحَّةِ بعضِ أَحاديثِ ابنِ بطُّوطةَ في رِحلَتِهِ، فكاتَبُ الرحلة محمدُ بنُ جُزي يُبْدي شكَّهُ في بعْضِ ما كان الرحالةُ الكبيرُ يُمْلي عليهِ من قِصصٍ وحكاياتٍ وأخْبارٍ، وهو يُشيرُ إلى ذلك إشارةً خاطفةً في المُقدِّمةِ، إذْ يقولُ: "وأوردتُ

جميعَ ما أورده منَ الحِكايات والأخْبارِ، ولم أتعرَّضْ لِبحثٍ عن حقيقةِ ذلكَ ولا اختَبارٍ!".

وقدْ عُنِيَ المُستشْرِقون بالمُقارنةِ بين أقْوالِ ابنِ بطُّوطةَ وأقْوالِ غيرهِ من الرحَّالين في عصْرِهِ، أو في عصْرٍ يقرُبُ من عصْرِهِ، فبدا لهُمْ صِدْقُهُ، والحقُّ أنَّ **ابنَ بطُّوطةَ لمْ يتعمَّدِ الكذبِ فيما رواهُ، وكانَ يجتَهِدُ في تحرِّي الحقيقةِ**، أما الحكاياتُ التي نقلَها أحياناً، والتي هي من قَبيلِ الخُرافاتِ، فإنَّها تَنِمُّ عن سذاجةٍ في الطبْعِ عندَ ابنِ بطُّوطةَ ، على الرغْمِ من دِقَّةِ مُلاحظَتِهِ ونفاذِ بصرهِ وحُسْنَ فهمِهِ للطبائِعِ الإنْسانِيَّةِ، وينبغي أن نُدْركَ أنَّ **الرجُلَ هو ابنُ**

بيئتهِ وعصرهِ في جُلِّ آرائهِ وعقائِدهِ، وعلينـا أن نُنْصِفَ الرَّحالةَ العظيمَ فنَنظـرَ إليـهِ بمقيـاسِ عصْرِهِ، ومِنَ الظُّلْمِ دونَ شكٍّ أنْ نُطـالِبَ ابـن بَطُّوطةَ بأنْ يكونَ مثلَ رحَّـالي عصرنـا مـن العُلَماء والمُفكّرينَ الذين يجُوبونَ البـلادَ لتقديـمِ دراسةٍ علميةٍ صحيحةٍ قائِمةٍ على العِلْمِ وصِـدْقِ الاستنباطِ ونتيجةِ الاختبارِ، عن سُـلطانِ تلـكَ البلادِ وأحْوالِهم وحضارتِهِمْ،وحسـبُنا أنْ ننقُـلَ شهادةَ الرحالةِ الأوربيِّ الشهيرِ والعـالمِ الكبـيرِ **سِتَزنْ** بفضلِ ابنِ بطُّوطةَ حينَ يقولُ:

"أيُّ سائِحٍ أوْربيٍّ يمكنُهُ أنْ يفتخرَ بأنَّهُ قضى من الزمنِ ما قضاهُ ابنُ بطوطـةَ فـي البحْـثِ

لِكَشْفِ المَجْهولِ من أحْوالِ هذا العددِ الكثير من البُلْدانِ السحيقةِ، وتحمَّل من مشاقِّ الأسفارِ ما تحملَّهُ بصبرٍ وثباتِ وشجاعةٍ؟ بل أيَّةُ أمَّةٍ أوربيةٍ كانَ يُمْكِنُها منذُ خمْسةِ قُرونٍ أن تَجِدَ من أبنائِها من يجوبُ البلادَ الأجنبيّةِ، وهو يملكُ من الاستقلالِ بالحُكْمِ والقُدْرةِ على المُلاحظَةِ والدِّقَّةِ في الوصْفِ، ماكان يملكُهُ هذا الرحّالةُ العظيمُ! **إنَّ ما جاء به من المَعْلوماتِ الصحيحة عن الجهاتِ المَجْهولةِ من إفريقيةَ لا يقِلُّ في فائدتِهِ عن مَعلوماتِ لِيُونَ الافريقيِّ!".**

هذا حُكْمُ الإنْصافِ في (ابنِ بَطُّوطةَ) **الرحَّالةِ الأمينِ**، كما يُسمِّيهِ المُسْتشرِقِ دُوزي،

إعْجاباً برحلَتِهِ، وتقْديراً لأمانتِهِ وصِدقِهِ فيها، وإنَّ شخصيتَهُ لتَبْدو مِنْ خِلالِ رحلتِهِ كلِّها مُحبَّبةً. وهي تُمثِّلُهُ إنْساناً يقِظَ الوجدانِ رقيقَ العاطفةِ شديدَ الحساسيةِ والتأثُّرِ، حيَّ الضميرِ، شديدَ الورَعِ والتَّقْوى، مُحبّاً لِوالديْهِ، مُعَظِّماً للأتْقِياءِ والصَّالحينَ، حريصاً على زيارةِ قُبورِهُمْ للتبرُّكِ بهم، وعلى روايةِ ما يُنْسَبُ إليهم من كَرامات وأعمْال برٍّ وإحْسانٍ! **وقد تدْفعُهُ سَذاجةُ في طبْعِهِ إلى روايةِ أشْياء يرفُضُها العقلُ والتمحيصُ**، ولكنَّ الرجلَ ـ كما قّدمنا ـ هو ابنُ عَصْرِهِ وبيئتِهِ وعقائدِها، وحسبُه أنَّهُ كانَ يتحرَّى الحقيقة جُهْدَه، ولم يتعمَّدْ أنْ يكذِبَ أو أنْ

يُحاولَ الغشَّ في أقْوالهِ، والرحلةُ كلُّها تَشِفُّ عن أخْلاقِ الرجلِ القويمةِ وصِفاتِهِ الطيِّبَةِ، من صَفاء نفْسٍ وطهارة قلبٍ ونقاء سَريرة. كما تنمُّ عن شخصِيتِهِ المُثقَّفةِ: فقدْ كانَ ابن بطُّوطة عالِماً فقيهاً أديباً، مُؤهَّلاً لِتَولِّي القَضاء والحُكْمِ بينَ الناسِ، وقد دُعيَ لذلك حينَ نصَّبهُ ركْبُ الحُجاجِ من تُونُسَ قاضياً بينهُمْ، في المرحلةِ الأولى من رِحْلتِهِ، وهُوَ ما يزالُ شاباً في الثانيةِ والعشرينَ، اعترافاً منهُمْ بِعلْمِهِ وورَعِهِ وتفقُّهِهِ في الدِّينِ ونُضْجِهِ ورُشْدِهِ.

3

في هذا الكِتاب نُحـــاوِلُ أنْ نُقـــدِّمَ **عَرْضـــاً مُوجزاً لِرِحْلةِ ابنِ بطُّوطةَ**، نُرافقُ خِلالَهُ رحَّالتنـا المغربيَّ الخالدَ منذُ خروجِهِ من طنجةَ عامَ 725، إلى عودتِهِ الأخيرةِ إلى وطنِهِ عامَ 754هـــ بعـــد ثمانيةٍ وعشرينَ عاماً مـــن التَّجْــوالِ والرِّحْلـــةِ والتَّنقُلِ، في أقْطارِ الأرْضِ؛ ولكَيْ تسْهُلَ علينـــا مُتابعةُ جَوّابِ الآفاقِ خِلالَ هذهِ السنينَ الطّويلـــةِ، نَقْسِمُ **العَرْضَ إلى مَراحِلَ مُتَتابِعةٍ**، نُلاحقُ خِلالها مسيرةَ ابنِ بطوطَةَ مِنَ البدايةِ إلى النهايةِ، نطْوي معهُ المسافاتِ، ونشْهَدُ أطرفَ المشـــاهِدِ، وكـــلَّ

رجائِنا أن يجِدَ القارئُ فيما نُقدِّمُهُ مِنْ مراحـــلِ الرِّحْلةِ الفائدةَ والمُتْعةَ والتسليةَ، وأن يُدرِكَ فـــي نِهايةِ المطافِ عِظمَ الجُهودِ والتضْحيـــاتِ التـــي قدَّمَها الرَّحالةُ العظيمُ في القرنِ الهجري الثــامنِ، ليكتَشِفَ المَجْهولَ، في عصْرٍ كانتِ المواصــلاتُ فيهِ لاتعرِفُ البُخارَ ولا الكهْرباء ولا السيّارة ولا الطيّارة!.

أما مراحِلُ الرِّحلةَ فهيَ **تُواكِبُ خـــطَّ ســيرِ الرحَّالةِ في تنقُّلاتِهِ** وأسْفارِهِ: المغربُ العربيُّ ــ الديارُ المُصريةُ ــ ديارُ الشامِ ــ الحجازُ والديارُ المُقدَّسةِ ــ العراقُ وفارسُ ــ الجزيرةُ العربيـــةُ ــ بلادُ الرُّوم وما جاورها ــ الهندُ وجُزُرُ الـــهِنْدِ

الشرقيةُ ــ الصَّينُ ــ العــــوْدةُ إلـــى المغــربِ والأنْدلُسِ ــ السُّودانُ

وقبلَ أنْ نختمَ هذا التمهيدَ، وننْطلِــــقَ مــعَ الرحّالةِ المغربيِّ الخالدِ فــــي مراحــلِ رحلتِــهِ الطويلةِ لابُدَّ لنا من مُلاحظةٍ أخيرةٍ، نتحدّثُ فيــها عن **تفوّقِ المغاربةِ المسلمينَ في فنِّ الرحْــلاتِ، وتبْريزِهم في هذا النوعِ الأدبيِّ على المشــارقةِ،** وإكثارهمْ من التأليفِ فيــه، والحــقُّ أنَّ هُنــالكَ أسباباً جعلتِ المغاربــةَ يُكــثرونَ مــن تــأليفِ الرَّحْلاتِ في كُلِّ العُصورِ، وأهمُّها الرحلة إلـــى المشْرقِ **لتأديةِ الفريضةِ، أو لطلــبِ العِلْــمِ، أو** الرِّحْلةُ **للسياحةِ عامَّةً، أو لِلسَّفارةِ عن المغْـربِ**

لدى الدولِ الأُخْرى، أو **مرافقةِ رِجالِ الدولةِ فــي أسفارِهمْ** لتسجيل مايتمُّ خِلالها، وفي رحلةِ ابـــنِ بطُّوطةَ نجدُ بعضَ تلكَ العواملِ التي دفعتْ بـــهِ إلى مُغادرةِ المغربِ لِيصْبحَ واحداً مـــن كِبـــارِ الرَّحالةِ العَرَبِ المُبرِّزينَ الخالدين.

المرحلة الأولى

بداية المطاف في المغرب العربي

غادرَ ابنُ بطُّوطةَ مسقَطَ رأسِهِ **طنْجةَ** يـــومَ الخميسِ، الثاني من رجبٍ 725 هـــ قاصِداً الحـــجَّ إلى بيتِ الله الحرامِ وزيارةَ قبرِ رَسُولِهِ الكريـــمِ، وكانَ والداهُ على قيْدِ الحياةِ، فودَّعـــهُما وســـافرَ مُنْفرِداً، وَهُوَ يُعاني الألمَ لِفراقِهما، إلى أنْ وصلَ إلى مدينةِ (**تِلِمْسان**)، فأقامَ فيها ثلاثةَ أيّـــامٍ، ثُـــمَّ تابعَ سفره إلى مدينةِ (**مِليانَةَ**)، فوصلَ إليْها فـــي مَوْسمِ الحرِّ، وبعْدَ عشرةِ أيامٍ من إقامتِـــهِ فيـــها انضَمَّ إلى رفقةٍ من تُجّارِ تُونُسَ، فوَصَلَ معـــهُمْ

إلى **مدينةِ الجزائرِ** حيثُ أقامُوا بضاحيةٍ منها أياماً، قبْلَ أن يُتابِعَ الرَّكْبُ سيرهُ إلى مدينة **(بجايَةَ)**، وفي هذهِ المدينةِ أصيبَ ابنُ بطُّوطَةَ بالحُمَّى، فأشارَ عليهِ بعضُ رِفاقِهِ بالإقامةِ فيها حتى يُشفى مِمَّا ألمَّ بِهِ، فأبى وصمَّمَ على مُواصلةِ رحلتِهِ، مُفضِّلاً أن يلقى ربَّه – إذا انتهى أجلهُ – وهو في طريقهِ لتأديةِ فريضةِ الحجِّ، غيرَ أنهُ تخفّفَ من ثِقل متاعِهِ، وباعَ دابّته، وكان ذلك بنصيحةٍ من أحدِ رفاقِهِ، على أنْ يُعيرهُ دابةً من عندِهِ، ليُصبْحَ سيرهُ خفيفاً، ولايشغلَ نفسه بِمتاعِهِ وزادِهِ ، فالركبُ يجدُّ في سيْرِهِ، خوْفاً من غارةِ البُداةِ على القوافِلِ في ذلكَ

الطريق؛ وقد اشتدتْ وطأة الحُمّى على ابن بطّوطة، فكان لايستطيعُ التّماسكَ فوق الدّابةِ، فيشُدُّ نفسَهُ بعمامتِهِ فوقَ السرْجِ، لكيْلا يسقُطَ من الضَّعْفِ، وكذلك قطَعَ مدينة **(قُسنطينة)** ومدينة **(بُونةَ)**، والخوفُ من مُداهمةِ قُطّاعِ الطّريق يزيدُ في كرْبِهِ ومرضِهِ حتى وصَلَ إلى مدينة **(تونُس)**، وفي ظاهِرها كان عددٌ من أهلِيها ينتظرونَ قُدومَ بعضِ أصحابهمْ في الرَّكْبِ، أمّا ابنُ بطّوطةَ فلمْ يُقبلُ عليهِ أحدٌ، فأحسَّ بالوحشةِ والحُزْنِ، واستبدَّ بهِ الحنينُ إلى أهلِهِ فدَمِعَتْ عيناهُ، ورآه بعضُ المُستقبلينَ فأشفقَ عليهِ، وراحَ يبذُلُ جُهدهُ في مؤانستِهِ حتى سُرِّي عنهُ.

وأقامَ ابنُ بطُّوطة في مدينةِ تُونس مُدّة، شهِدَ فيها احتفالَ الناسِ بعيدِ الفِطْرِ، ثُمَّ انتظرَ حتى **تمَّ** **إعْدادُ ركْبِ الحُجّاجِ القاصدين إلى الحجازِ،** فانضمَّ إليهمْ، وعرَفَ هؤلاء الحجّاجُ فضْلَ ابنِ بطُّوطةَ، **فنصَّبوه قاضياً** عليهم، لِعلْمِهِ وتفقُّهِهِ في الدينِ، فأنِسَتْ نفسُهُ بذلك، وزايلتْهُ وحْشتُهُ؛ ثم غادرَ الرَّكْبُ مدينةَ (تُونس) سالِكاً الطريق الساحليَّ، فاجْتازَ (**سُوسة**) و (**صفاقس**) حتى وصَلَ إلى (**طرابلس**) وكان في الرَّكبِ عددٌ كبيرٌ من الفُرْسانِ والرُّماةِ، فلم يجْرُؤ أحدٌ من البُداةِ على اعتراضِ طريقهمْ.

وفي طرابلسَ تزوّجَ ابنُ بطُّوطةَ من ابْنِـــةِ تُونسي من حُجّاجِ الرَّكْبِ، ولم يشأ انتظار تحرُّكِ الرّكْبِ إذ آثر المُســـافِرون فيـــه الـــتريُّثَ فـــي طرابلُس، خوْفاً من البرْدِ والمطرِ، فانطلقَ ابـــنُ بطُّوطةَ، ومعهُ زوجتُـــهُ وجماعـــةٌ مـــن قبيلـــةِ المصامدَةِ، وتجاوزوا في طريقِـــهِمْ (مِسْـــلاتة) و(مِسْراتةَ) و (قُصورَ سُـــرْتَ) وتمكّنـــوا مـــن الإفْلاتِ من قبائلِ البُداةِ التي كادتْ توقعُ بـــهم، حتى وصلُوا إلى (قُبَّةِ سلامٍ)، حيثُ أدركَهُم فيـــها الرَّكْبُ المُتخلِّفُ في طرابلسَ؛ ووقعَ شجارٌ بيـــنَ ابنِ بطُّوطةَ ووالدِ زوجتِـــهِ، فطلَّقـــها، وتـــزوَّجَ أُخْرى، هي ابنةُ أحدِ الفاسيِّين من طلبَةِ العِلْـــمِ،

واحْتفالاً بفرحةِ العُرْسِ أوْلَمَ ابنُ بطُّوطة للرَّكْبِ كُلِهِ وليمةً كُبرى، حيثُ قضى المُسافِرونَ يوماً كاملاً في مرَحٍ وهناءةٍ وسُرورٍ قبْلَ أنْ يُتابِعوا مسيرتَهم نحو الإسكندرية.

ويُحدثُنا ابنُ بطُّوطة أنَّهُ غادَرَ طرابلس في أواخرِ شهرِ المُحرَّمِ من عام 726 هـ، ووصلَ معَ الركبِ إلى **الإسكندريةِ** في أوَّلِ جُمادى الأولى، بعدَ ثلاثةِ أشْهرٍ من السفَرِ، وقد مرَّ عليهِ **منذُ خُروجهِ من طنْجةَ عشرة أشهرٍ كاملةٍ**، قضاها في اجتيازِ المغربِ العربيِّ إلى الديارِ المِصريَّةِ.

المرحلة الثانية

ابن بطُّوطة في الديارِ المصرية

أُعْجبَ ابنُ بطوطة بكُلِّ ما شاهدَهُ في الديارِ المِصريةِ، وقد نالتِ **الإسكندريَّةِ** قسْطاً وافِراً من إعْجابِهِ، فتحدَّث عنْ أبْوابِها ومَرْساها العظيم الذي لم يَشْهدْ مثلَهُ في موانىء الدُّنْيا التي رآها، باستثناء بعض المراسي في الهِنْدِ والصّينِ وغيرهما، وأعْجبهُ من جُمْلةِ الغرائِبِ التي رآها في الإسْكندريَّةِ **عمودُ السَّواري**، الهائلُ المنحوتُ من الرُّخامِ، في قِطْعةٍ واحدةٍ، يُطاوِلُ في السُّموِّ والارْتِفاعِ أعلى أشجار غابةِ النخيلِ التي نُصِبَ العمودُ على قاعدةٍ حجريةٍ فيها.

ومن غرائبِ ما شـــاهدَ فـــي الإســـكندريةِ عمامةُ قاضيها عماد الدين الكِنْدي "فقدْ كان يعْتمُّ بعمامةٍ خرقَتِ المُعْتادَ لِلعَمائمِ ـ كمـــا يقـــول ـ ولمْ أرَ في مشارقِ الأرضِ ومغارِبِـــها عمامـــةً أعظمَ منها، رأيتُهُ يوماً قاعداً في صَدْرِ مِحْرابٍ، **وقد كادتْ عمامتُهُ أن تمْلأ المَحْراب!!".**

وكانَ ابـــنُ بطّوطـــةَ خِـــلالَ مُقامِـــهِ فـــي الإسكنْدريةِ حريصاً على مُقابلةِ العُلماءِ وكُلِّ مَنْ يسْمعُ أخبارَ كراماتِهِمْ من الأوْلياءِ والصـــالحين، وقد لقِيَ في جُمْلةِ من لَقِيَ منهم **واحِداً من كبـــارِ الزُّهادِ العُلماءِ، واسمُهُ بُرهانُ الدينِ الأعـــرجُ،** وأقام في ضِيافتِهِ ثلاثة أيامٍ، وكان لَـــهذا العـــالمِ

الزاهدِ الورِعِ الخاشِعِ ــ كما يصِفُهُ ــ أثرٌ بــالِغٌ في حياةِ ابنِ بطُّوطـــة، إذ استشـــفَّ مـــن رُوحِ الشابِّ المغربيِّ حُبَّـــه لِلتجــوالِ فـــي الأرْضِ، وارتيادِ الآفاقِ البعيدة، والسياحةِ في البلادِ، **فتنبّأ لهُ بِزيارةِ الهندِ و الصِّينِ**، ولنُصْـــغِ إلـــى ابـــنِ بطُّوطةَ وهو يُحدِّثُنا عن ذلك بقوْلِهِ:

"دخلتُ عليهِ يوْماً فقالَ لـــــي: أراكَ تُحِــبُّ السياحةَ والجَوَلانَ في البِلادِ؟ فقلتُ لهُ: نعَمْ إنِّـــي أحبُّ ذلك، ولم يكُنْ حينئِـــذٍ خطـــرَ بخـــاطِري التوغُّلُ في البِلادِ القاصيةِ من الــــهندِ والصّيـــنِ، فقالَ: لا بُدَّ لكَ ــ إنْ شاء الله ــ من زيارةِ أخــي فريدِ الدينِ بالهنْدِ، وأخي رُكن الديـــن زكريّـــاء

بالسِّنْدِ، وأخي بُرْهانِ الدين بالصّين، فإذا بلغتَهم فأبْلِغهُمْ مني السَّلامَ! فعجبتُ من قولِهِ، وأُلْقِيَ في رُوعي التوجُّهَ إلى تلْكَ البِلادِ" ومن حديثِ ابن بطُّوطة نعلمُ أنَّ الرحالةَ العظيمَ لم يكُنْ قبلِ لِقائِهِ بالزاهِدِ المذكورِ في الإسكندريةِ يُفكِّرُ في الإيغالِ في رِحْلاتِهِ إلى أقاصي بلادِ الهندِ والسِّنْدِ والصّينِ، فجاءتْ **كلماتُ الزاّهِدِ المصْرِيِّ ترسُمُ لهُ الآفاق البعيدة**، وتحفِزُهُ على ارتيادِها، وتُبشِّرُهُ بالوُصولِ يوْماً إليها، وتُنمِّي غريزة حُبِّ الأسْفارِ في أعماقِ نفْسِهِ، وهكذا يكونُ **لِمصرَ فضْلٌ في تنْميةِ ملكةِ الارتحالِ** لزيارةِ أقاصي المعْمورةِ في نفسِ **ابنِ بطُّوطةَ**، وهو نفْسُهُ

يُحدِّثُنا عن رجُلٍ آخرِ من المصْريِّين الصـــــلحين، سمعَ عنهُ وهو في الإسكندريةِ أنَّـــهُ مـــن كِبـــارِ الأوْلياءِ المُنقَطعين لِلعبادةِ في بعــــضِ الزَّوايـــا، واسمُهُ **الشيخُ أبو عبد الله المُرْشديِّ**، فرَحَلَ إلى مُنْيةِ بني مُرْشدٍ لكيْ يلقاهُ، وقضى عندهُ ليلةً رأى فيها حُلماً عجيباً فسَّرهُ الشيخُ لهُ بأنَّهُ سوفَ يحُـــجُّ ويزورُ قبرَ النبيِّ، ثُمَّ يتجوَّلُ فـــي بـــلادِ اليمـــنِ والعراقِ وبلادِ التُرْكِ وبلادِ الهِنْدِ، ويبْقى بها مُدَّةً طويلةً! ولقدْ غادرَ ابنُ بطُّوطةَ مُنْيَةَ بني مُرْشِـــدٍ وقد استقرَّ في نفسِهِ الإيمانُ بالوُصولِ إلى البِـــلادِ التي ذكرها الشيخُ لهُ، والتي أصبحَ يتشوَّقُ إلـــى شدِّ الرِّحالِ إليها.

وانتهَزَ ابنِ بطُّوطةَ فرْصةَ وجودِهِ في الديارِ المِصْريّةِ ليَطوفَ في أرْضِ مِصْرَ ويزور أمهاتِ المُدُنِ فيها مثل **(دمَنهُور)** "وهي مدينةٌ كبيرةٌ، جبايتُها كثيرةٌ، ومحاسِنُها أثيرةٌ" ومثل **(دِمياط)** التي أعجبتْهُ لِكُثرةِ أشجارِ الموْزِ فيها، وقد أشار إلى أنَّ الخُروجَ من المدينَةِ يكونُ بتصْريحٍ من الوالي، فمنْ كانَ من الأعْيانِ أوْ من ذوي المنْزلةِ الرفيعةِ مُنِحَ تصْريحاً خطِّيّاً يُبرِزُهُ للحُرّاسِ عندَ بابِ المدينةِ، أمّا عامّةُ الناسِ فتُوضَعُ على ذِراعِ الواحدِ منهم علامةٌ مطبوعةٌ، لِتكونَ بمثابة تصْريحٍ لهُمْ بِمُغادرةِ المدينةِ إذا أرادُوا ذلكَ!

ومثلِ مدينةِ (**أسيوط**) التي أعجبتْهُ أسواقُها البديعةُ، ومدينة (**قُوص**) التي أشارَ إلى كُثرةِ مساجدِها ومدارِسِها، ومدينةِ (**أسْنا**) التي وصفَها بأنَّها "مدينةٌ عظيمةٌ، مُتَّسِعةُ الشوارِعِ، ضخمةُ المَنافِعِ، كثيرةِ الزوايا والمدارسِ والجوامِعِ، لها أسْواقٌ حِسان وبساتينُ ذاتُ أفْنانٍ".

أما (**القاهِرةُ**) عاصمةُ الديارِ المِصْريّةِ فقدْ أدهشتْهُ بكثرةِ عمارتِها وبالِغِ بهائها ونضارتِها، فهي "تموجُ موْجَ البحرِ بِسُكّانِها، وتكادُ تضيقُ بهم على سعةِ مكانِها وإمكانِها" ويُقالُ: فيها "من السَّقائينَ اثنا عشر ألف سقّاءٍ على الجِمالِ" وفي نيلِها من المراكِبِ "ستةٌ وثلاثون ألفاً للسُلطانِ

والرعيَّةِ، تمرُّ صاعِدة إلى الصعيـدِ، ومُنْحـدرة إلى الإسْـكندريّةِ ودِمياط بـأنواعِ الخـيراتِ والمرافِقِ".

وزارَ ابنُ بطُّوطة **مسجدَ عمرو بنِ العاص** وعدداً كبيراً من المدارسِ "لايُحيطُ أحدٌ بحصْرِها لكثرتِها" كما زارَ المُستْشفى الكبيرَ **(المارِسْتان بين القصْرين)** وقال إن الواصِفَ "يعجزُ عن وصْفِ محاسِنِهِ، وقدْ أعِدَّ فيه من المرافقِ والأدويةِ ما لا يُحصرُ!".

لقدْ خلَّفتِ القاهرة أطْيبَ الأثر في نفْسِ، ابنِ بطُّوطةَ، فأفاض في وصْفِ محاسِنها، **وأمّا النّيلُ فقد فضَّلهُ على أنْهارِ الأرْضِ كُلِّها** فقالَ: "ونيلُ

مِصْرَ يفْضلُ أنهارَ الأرْضِ عذوبةَ مذاقٍ واتّساعَ قطرٍ وعِظَمَ منْفعةٍ، والمـدنُ والقُـرى بضفَّتيْـهِ مُنتظمةٌ ليسَ في المَعْمورِ مثلُها، ولا يُعلمُ نـهرٌ يُزرعُ عليهِ ما يُزرَعُ على النيلِ" وقد لاحظَ ابـنُ بطُّوطة عندما ركِبَ النّيـلَ أن المسـافرَ فيـه "لايفْتقِرُ إلى استِصْحابِ الزّادِ لأنّـهُ مـهما أراد النُزولَ بالشاطىءِ نزَلَ لِلوُضوءِ والصّلاةِ وشَراءِ الزّادِ وغير ذلكَ، والأسْواقُ متصلةٌ مـن مدينـةِ الإسكندريةِ إلى مصرَ (القاهرة) ومنْ مصر إلـى مدينة أسْوان من الصّعيد".

وتحدّث عن الأهْرام فقال إنّها "من العَجـائبِ المذكورَةِ على مرِّ الدُّهورِ" و "هي بناء بـالحَجَرِ

الصَّلْدِ المنْحوتِ، مُتناهي السُّمُوِّ (الارتفاع) مُستديرٌ، مُتّسعُ الأسْفلِ، ضيِّقُ الأعلى، كالشَّكلِ المخْروطِ، ولا تُعْلَمُ كيفيةُ بنائها".

ووصَفَ ابنُ بطُّوطةَ **أهلَ مصْرَ** بأنهُم "ذوو طربٍ وسُرورٍ ولهْوٍ" ويقولُ: "شاهدتُ بها مرَّةً فُرجةً بسبب بُرْءِ الملكِ النّاصرِ من كَسْرٍ أصابَ يدهُ، فزيَّنَ كُلُّ أهلِ سُوقٍ سُوقهم، وعلَّقوا بحوانيتهم الحُلَلَ والحُليَّ وثيابَ الحرير، وبقوا على ذلك أيّاماً!"

والملكُ الناصرُ الذي يذكُرُهُ، والذي كان سُلطانَ مِصْرَ عندما وصلَ إليْها ابنُ بطُّوطة هو تاسِعُ سَلاطينِ المماليكِ البحريِّين في مِصْرَ،

محمد بنُ قلاوون، والرحَّالةُ المغربيُّ يكثرُ مـــن الثناءِ عليهِ، والتغنّي بأفضالِهِ وحُسْـــن سِـيرتِهِ، ويُعدِّدُ من فضائلِهِ برَّهُ بقوافلِ الحُجّاجِ وإحْســانِهِ إلى الضُّعفاءِ والمُنْقطِعين منهم في كُـــلِّ عــامٍ، "وكفاهُ شرفاً ــ كما يقولُ ابنُ بطُّوطة ــ انتمــاؤه لخِدمةِ الحرمينِ الشريفيْن"، كما ذكــرَ حِرْصَــهُ على نشرِ العدالةِ في مملَكتِهِ، إذْ كان يقعُدُ بنفسِــهِ للنظرِ في المظالِمِ، في يوميْنِ من كُلِّ أســـبوع، لتلقِّي شكاوى الناس، والعملِ علـــى إنصافِــهِم، ويقعُدُ معهُ القُضاةُ الأربعةُ (لِكُلِّ مذْهبٍ قاضيـــه) عن يسارِهِ، ليتـــمَّ إحقــاقُ الحـــقّ، وإنْصـــافُ المظلومين وردْعُ الظالِمينَ.

المرحلة الثالثة

ابن بطوطة في ديار الشام

في مُنتصِفِ شعبانَ عام 726 هـ **غادرَ ابنُ بطُّوطةَ مِصْرَ إلى الشام** عن طريق **بُلْبيْسَ والصالحيَّةِ**، وكان طريقُ السفرِ في **صحْراء سيناء** مُزوَّداً بكُلِّ ما يكفَلُ الرّاحةَ لِلمُسافرين، ففي كُلِّ منزلٍ (محطّةٍ) من منازِلِ الطريقِ فُنْدُق (ويُسمّى الخانَ) ينزلُهُ المسافرون بدوابِّهم، وبخارجِ كُلِّ خانٍ ساقيةٌ للسبيلِ، وحانوتٌ يشْتري منهُ المسافرُ ما يحْتاجُ إليهِ لنفسِهِ ودابّتِهِ. وهكذا اجتازَ ابنُ بطُّوطةَ المنازِلَ في **(السَّوادةِ والمُطَيْلبِ والعريشِ والخرّوبةِ)** حتى بلَغَ **(قطْيا)**

وهي المحطّةُ التي فيها "توخذُ الزّكاةُ من التجارِ، وتُفتّشُ أمتعتُهم، وفيها الدواوينُ والعُمّالُ والكُتّابُ، ولا يَجوزُ عليها أحدٌ من الشامِ إلا ببراءةٍ (تصريحٍ خطّيٍّ) من مِصْرَ، ولا إلى مِصْرَ إلا ببَراءةٍ من الشّامِ، احتياطاً على أمْوالِ الناسِ، وتوقّياً من الجّواسيسِ!

وبِوصول ابن بطّوطة إلى مدينة (**غزّة**) حلّ في أوّلِ بلادِ الشامِ مِمّا يلي مِصْرَ، وقدْ وجدَها "كثيرة العَمارةِ، حسنَة الأسْواقِ، بها المساجدُ الكثيرة، والأسْوارُ عليها".

ومن غزّة سافرَ ابنُ بطّوطة إلى **مدينة الخليل**، وزارَ مسجدّها المبنيَّ بالصخرِ

المنْحوتِ، وفيهِ الغارُ المُقدَّسُ، وقُبورُ إبراهيمَ وإسحق ويعقوبَ؛ وانتقلَ من الخليلِ إلى بيْتِ المقْدِسِ، حيثُ عَرَجَ النبيُّ العربيُّ إلى السَّماءِ، وهو يصِفُ المدينةَ بقوْلِهِ: "البلدةُ كبيرة مُنيفةٌ مبنية بالصخرِ المنحوتِ" وأمّا مسجدُها العظيمُ فهُوَ "من المساجدِ العجيبةِ الرائقَةِ، الفائقةِ الحُسْنِ، يقالُ: إنَّهُ ليسَ على وجْهِ الأرضِ مسجدٌ أكبرُ منه، ولهُ أبوابٌ كثيرةٌ، والمسجدُ كلُّهُ فضاء غيرُ مسْقوفٍ، إلا المسجدَ الأقْصى فهو مسقوف، في النهايةِ من إحْكامِ العملِ وإتقانِ الصَّنعةِ، مُموهٌ بالذهَبِ والأصْبِغةِ الرائقةِ.. وقُبّةُ الصخرةِ من أعْجبِ المباني وأغربها شكْلاً..

وهيَ قائِمةٌ على نشرٍ (مُرتفعٍ) في وسطِ المسجدِ، يُصْعَدُ إليها في درجِ رُخامٍ، ولها أربعةُ أبـــوابٍ، والدائرُ بها مفــروشٌ بالرُّخـــامِ أيْضـــاً، مُحكَـــمُ الصنعةِ، وكذلك داخلها، وفي ظاهرها وباطنِـــها من أنْواعِ التزويق، ورائق الصنعةِ مـــا يُعجـــزُ الواصفَ، وأكثرُ ذلك مُغشى (مُغطّى) بـــالذهبِ، فهي تتلألأُ نُوراً، وتلمعُ لمَعان الـــبرْقِ، يحـــارُ بصرُ مُتأمِّلها في محاسِنِها".

وتنقَّلَ ابنُ بطُّوطةَ في (**عسْقلانَ**) و(**الرَّملةِ**) و (**نابلُس**) ووصـفَ أهمَّ ما شهِدهُ في هذهِ المــدنِ الفلسطينيةِ، ثُمّ سافرَ إلى مدينةِ **عجْلون**، ومنـــها اتّجَهَ نحو الساحلِ، ماراً **بالغوْرِ**، "وهُوَ وادٍ بيـــن

تِلالٍ، به قبرُ أبي عُبيدةَ بـــن الجَـرّاحِ" الفـــاتحِ الإسْلاميِّ العظيمِ، فزارهُ وبـــاتَ فـــي الزاويـــةِ المبنيةِ عليهِ ليلتَهُ، قبلَ أنْ يُتابِعَ الطريـــقَ إلـــى مدينةِ **(عكّة)** وكانتْ يومذاك خراباً، ثُـــمَّ ســـافَرَ منها إلى مدينة **(صُورٍ)**، وهي خـــرابٌ أيْضـــاً، وانتقَلَ مِنْها إلى مدينةِ (صيْداء) فأعجبته بكـــثرةِ فواكِهِها، ونزلَ في ضيافةِ قاضيها، ثُـــمَّ رحَـــلَ عنْها إلى **(طبَريَّة)** فشهِدَ حمّاماتِها العجيبةَ، ثـــم سارَ عنها إلى **(بيْروت)** وكانتْ يومذاك "مدينـــةً صغيرةً" فلمْ يقفْ عندَها طويلاً، وتـــابع طريقَـــهُ إلى مدينة **(طرابُلُـــسَ)** فتوقَّـــفَ فيـــها ليَصِـــفَ ضخامتها: "فهي إحْدى قواعِدِ الشـــامِ وبُلْدانِـــها

الضخامِ، تخترِقُها الأنْهارُ، وتحُفُّ بِها البساتينُ والأشْجارُ.. ولها الأسواقُ العجيبةُ والمسارحُ (المراعي) الخصيبةُ، والبحرُ على ميلَيْنِ منها".

ثم ارتحلَ إلى (حِمْصَ) فوصفها وتحدَّثَ عن أهلِها: "وأهلُ حمصَ عربٌ لهمْ فضلٌ وكرمٌ"، وبعد أن زارَ **مسجدَ خالدِ بنِ الوليدِ** فيها، سافر مِنْها إلى (حماةَ) فوصف المدينة وبساتينَها ونواعيرها ونهرَ العاصي الذي يشقُّها، وأبدى إعجابَهُ بِفواكِهِها الكثيرةِ، ومنها المشمشُ اللّوزيُّ، "إذا كسرْت نواتَهُ وجدْتَ في داخِلِها لوزةً حُلوةً". ومَنْ حماةَ ارتحلَ إلى مدينةِ

(المعرَّةِ) فوجدَها "مدينةً كبـــيرة حســـنةً، أكـــثرُ شجرِها التينُ والفُستُقُ، ومِنْها يحمَلُ إلى مِصْـــرَ والشامِ".

وقبل أن يرتحلَ إلى مدينةِ حلَبَ، يجتازُ ابــنُ بطُّوطةَ بمدينةِ **سَرْمين**، ويتحـــدثُ عـــن كَـثْرةِ بساتينِها وشجرِ الزيتونِ فيها، ويذكر أنواعاً مـــن الصّابونِ يُصْنعُ فيها، ومنهُ "الصابونُ المطيَّـــبُ، لِغسلِ الأيدي، ويصْبِغونه بالحُمْرةِ والصُفْرةِ" وقد استطاعَتْ **(حلَبُ)** أن تحُوزَ بالغ إعجاب الرحّـلِ المغربيِّ، فوصفها بقولِـــهِ: "المدينـــةُ الكُـبرى، والقاعدةُ العُظمى" وأسهبَ في وصـــفِ قلعتـــها وأسواقِها ومسجدها الجامِعِ ومدارسِها، والبساتينِ

المُمتدة على شاطئ نهرِها، وقــد أخطـــأ فـــي تسميةِ النهرِ، فذكر أنَّه العاصي الذي يمرُّ بحماة، وهو سهْوٌ ووهْمٌ، ويبدو أن اسْمَ (قُويْــقٍ) غـــاب عن ذاكِرتِهِ، ولكنَّ صـــورةَ المدينـــةِ الكُـــبْرى بجلالِها وعظمَتِها ظلَّتْ في ذاكرتِهِ، فأنهى وصفَهُ لها بقوْلِهِ: "**وهي من المُدنِ التي تصلُحُ للخِلافةِ**".

وتابعَ ابنُ بطُّوطةَ رِحلتـــهُ إلـــى **إنطاكيَّـــة واللاذقيّة وجبلِ لُبنانَ وبَعلبَـــك** إلـــى أنْ حـــطَّ الرِّحال في **دِمشْقَ** في التاسعِ من شهرِ رمضـــانَ عام 726 هــ، وقد أخذتْ عاصمةُ الأمويين بلُبِّهِ، فاعترفَ بأنَّها "**تفضُـــلُ جميـــعَ البـــلادِ حُسْـــناً**" وتتقدَّمُها جمالاً، وكلُّ وصْـــفٍ وإنْ كـــال فـــهو

قاصِرٌ عن محاسِنِها" وكان أوَّلُ ما حَرِصَ على مُشاهدتِهِ فيها هُوَ جامعها "المعروفَ **بجامِعِ بني أمية، وهُوَ أعظمُ مساجِدِ الدُّنْيا** احتفالاً، وأتقنُها صناعةً وأبْدعُها حُسْناً وبهْجةً وكمالاً، ولا يُعلَمُ له نظيرٌ ولا يوجدُ له شبيهٌ" أما قُبَّةُ الجامِعِ الهائلةُ فإنَّها تبدو عاليةً، ويراها الناسُ من أيَّةِ جِهةٍ في المدينة؛ وأما صحنُ الجامِعِ فهو فسيحٌ يجتمعُ فيه أهلُ المدينةِ في العَشيّاتِ، فمنْ قارئ ومُحدِّثٍ، ويكونُ انصرافُهُمْ بعدَ صلاةِ العِشاءِ الأخيرةِ، وفي الرُّكْنِ الشرقيِّ من الجامِعِ خِزانةٌ كبيرةٌ فيها المصحفُ الكريمُ الذي بعثَ به الخليفةُ الراشدُ الثالثُ عثمانُ إلى الشامِ، وتُفتحُ هذه الخِزانةُ كُلَّ يوم جُمعةٍ بعدَ الصلاةِ، فيزدحِمُ

الناسُ على لثْمِ المُصْحفِ، وقد انتبَهَ ابنُ بطُّوطةَ إلى أنَّ الحياةَ الاقتصاديةَ تتركَّزُ في الأسْواقِ المُحيطةِ بهذا المسجدِ العظيم، من كُلِّ جانبٍ من جوانبِهِ، وعنْدَ كُلِّ بابٍ من أبوابِهِ الأربعةِ، بحيثُ يطلُّ كُلُّ بابٍ منها على مرْفقٍ هامٍ من مرافِقِ المدينةِ وبعضِ أسواقِها المشهورةِ.

ووصَفَ ابنُ بطُّوطة **حلقاتِ التدريس في جامِعِ بني أمية**، حيث تُدرَّسُ فيها فُنونُ العِلْمِ، وشهِدَ العالمَ الفقيه **ابن تيميَّة** وهو يعِظُ النَّاسَ يومَ الجُمعةِ، على مِنْبرِ الجامِعِ، وكان يومذاك كبيرَ فُقهاءِ الحنابلةِ، وعالم دمشقَ الأكبرَ، وكان أهلُ دمشقَ يُعظِّمونهُ أشدَّ التعظيمِ.

وتحدَّث ابنُ بطُّوطةَ عن **أهالي دمشق** وقالَ إنَّهم لايعملون يومَ السبتِ عملاً، وإنَّما يخْرُجـونَ إلى المُنْتزهاتِ وضِفـافِ الأنْـهارِ، ودَوْحـاتِ الأشجارِ، بينَ البساتينِ النَّضِرةِ والمياهِ الجاريـةِ، ويقْضون يومَهم إلى الليل، في راحـةٍ وبهجـةٍ واستمتاعٍ بجمالِ الطبيعةِ وفِتْنتِها، وأشـادَ ابـنُ بطُّوطة بحُبِّ أهلِ دمشقَ لعمـلِ الخـيْرِ والـبرِّ والإحْسانِ، وتحدَّثَ عن الأوْقافِ الكثـيرةِ التـي خصَّصوها لِتقديمِ العَوْنِ للمُحْتـاجين: فأوقـاف لإعانةِ العاجزينَ عنِ القيـامِ بفريضـةِ الحـجِّ، وأوقافٌ لفِكاكِ الأسْرى، وأوقافٌ لأبناء السَّـبيلِ من الغُرباء، وأوقافٌ لِتعديلِ الطرُقِ في المدينـةِ

ورصْفِها، وأنْواعٌ أخرى من الأوقافِ، لا تخطـرُ على البالِ، وهو يروي حكاية نوعٍ منها بِقوْلِـــهِ: "مررتُ يوماً ببعضِ أزقَّةِ دمشْقَ فرأيتُ مملوكــاً صغيراً (عبداً صغير السِنِّ) قـــد ســقطتْ منـــهُ صحفةٌ (صحنٌ) من الفُخَّار الصينيِّ، فتكسَّـــرت، واجتمعَ عليهِ الناسُ، فقالَ لهُ بعضُـــــهم: اجْمــعْ شِقفَها (قِطعَها) واحْمِلها معكَ لِصـــاحبِ أوقـــافِ الأواني، فجمَعَها وذهب الرجلُ معهُ إليهِ، فـــأراهُ إيّاها، فدفعَ له ما اشْترى به مثلَ ذلك الصحنِ!".

ويُلاحظ ابنُ بطُّوطة، وقد قضى أكثر شـــهرِ رمضانَ لعامّ 726 هــ فـــي دمشـــقَ أنَّ أهْلَــها لايُفطِرُ أحدٌ منهُمْ في ليالي هذا الشـــهرِ الكريــمِ

وحْدهُ، فهُمْ يجتمعونَ كُلَّ ليلةٍ في دارِ أحدهــم، أو في مسجدٍ، ويأتي كُلٌّ منهم بما عنده من طعــامٍ، فيُفطرون جميعاً.

وعندما استهلَّ شهرُ شوّالٍ من هـــذا العـامِ خرَجَ ركْبُ الحُجّاجِ الشاميينَ من دِمشْقَ، وأخـــذ يتأهَّبُ للتجمُّعِ والسَّفرِ في قريةِ **الكُسوةِ فـــانضمَّ ابنُ بطُّوطة إلى ركْبِ حُجَّاج الشامِ**، وكانَ أمـــيرُ الركب لذلك العام أحدَ كبـــارِ الأمـــراء، وكـــانَ الرحّالةُ المغربيُّ شديدَ اللهفةِ إلى الرحيـــلِ إلـــى الأراضي المُقدَّسةِ، لِقضاء الفريضةِ التــــي مـــن أجْلِها غادَرَ مسقط رأسِهِ طنْجة قبلَ أكـــثر مـــن عامٍ.

المرحلة الرابعة

ابن بطُّوطة في الحجازِ والديارِ المقدسةِ

توقَّفَ ركْبُ حُجّاجِ الشامِ في مدينةِ **بُصْرى** مدَّة أربعة أيامٍ، ليلْحقَ بِهِ من تخلَّفَ منهم في دمشقَ لقضاء مآربِهِ، وانتهزَ ابنُ بطُّوطة الفُرْصةَ فشاهدَ ما في تلك المدينةِ من آثارٍ، وأهمُّها المسجدُ العظيمُ الذي شُيِّدَ عندَ مَبْركِ ناقةِ النبيِّ العربيِّ حينَ وفدَ إلى بُصْرى قبلَ بعثتِهِ، في تجارةِ خديجةَ، ثُمَّ استأنفَ الركْبُ سيْره حتى بلغَ (تبُوك) وكانتْ من المحطّاتِ الهامَّةِ على

طريقِ القوافِلِ إلى الحِجازِ، يتزوّدُ منها المُسافِرون بالمياهِ، استعداداً لاجتياز ما بعدَها من الصَّحْراءِ. وهي صَحْراء مُوحِشةٌ، يقالُ فيها: داخِلُها مفْقودٌ، والخارجُ منها موْلودٌ! وقد تابعَ الرَّكبُ طريقهُ حتى وصَلَ إلى **المدينةِ المنوَّرةِ**، ودخَلَ الحُجَّاجُ **الحرَمَ النبويَّ الشريفَ**، وانتهوا إلى المسجدِ الكريمِ، ووقَّفُوا ببابِ السَّلامِ مُسْلمينَ، وصلّوا بالروضةِ بينَ القبْرِ والمِنْبرِ، وأحسَّ ابنُ بطُّوطةَ أن رُوحهُ تسيلُ خُشوعاً في ذلكَ المكانِ القدُسيِّ، وحَمِدَ الله الذي قيَّض لهُ زيارةَ قبرِ النبيِّ الأمين، وفاضَ قلبُهُ بالسُّرور لنيلِهِ تلك المِنَّةَ الكُبْرى والنِّعمةَ العُظْمى.

أقامَ ابنُ بطّوطة ورفاقُهُ في المدينةِ أربعــــةَ أيامٍ، وكانوا يبيتونَ الليلَ في المسجدِ، حيثُ أوْقـدَ الناسُ الشمْعَ الكثير في صحْنِهِ، وأخذوا يُرتّلِــونَ القُرآن ويذكرون الله، وانصرفَ بعضُــهُمْ إلــى الترنُّمِ بالأناشيدِ في مدحِ الرّسولِ. وكـــانَ زُوّارُ المسجدِ النبـــويِّ يجُــودون بالصَّدقــاتِ علــى المُجاورينَ والمُحتاجين، وسط تلـــكَ المظــاهرِ الدينيةِ الرائعةِ.

وغادرَ الركبُ مدينَة الرسولِ قاصِداً **مكَّـــة المُكرَّمةَ**، فلمّا بلغَ وادي العَقيقِ لبِـــسَ الحُجّــاجُ ثيابَ الإحْرامِ، وتابعوا الطريقَ يقْطعونَ المراحل حتى وصلوا مع الصباحِ إلـــى البلــدِ الأميــن،

وأسرعوا ليدْخلوا البيتَ الحَرام من بـــابِ بنـــي شيْبةَ، ويُشاهِدوا **الكعبةَ الشريفة**، ولنـــتْركِ ابـــنَ بطُّوطة يصِفُ تلكَ اللحظةَ السعيدةَ في حياتِـــهِ إذ يقولُ: "ودخلْنا البيتَ الحرامَ الذي منْ دخلَهُ كـــان آمِناً، مِنْ بابِ بني شيْبةَ وشاهَدْنا الكعبةِ الشـــريفة ـ زادَها الله تعظيماً ـ وهي كالعَروسِ تُجلـــى على مِنصَّةِ الجلالِ، وترْفُلُ في بُرودِ الجَمـــالِ، محْفوفةً بوفودِ الرحمـــنِ، مُوصِلـــةً إلـــى جنَّـــةِ الرضوانِ، وطُفْنا بها طوافَ القُـــدومِ، واســـتلمْنا الحجرَ الكريم، وصلَّيْنا ركعتيْنِ بِمقامِ إبراهيـــم، وتعلَّقْنا بأستارِ الكعْبةِ عنْدَ المُلتزمِ، بيـــنَ البـــابِ والحجرِ الأسْودِ، حيثُ يُستجابُ الدُّعاءُ، وشـــرِبْنا

من ماء زمْزمٍ.. ثُمَّ سعَيْنا بين الصَّفا والمـــرْوةِ، ونزلْنا هُنالِكَ بِدارٍ بِمقْرُبةٍ مـــن بـــابِ إبراهيـــمَ، والحمدُ لله الذي شرَّفنا بالوِفادةِ على هذا البيـــتِ الكريمِ، ومتَّعَ أعيننا بِمشاهدةِ الكعبـــةِ الشـــريفةِ والمسجدِ العظيم".

ويُسهِبُ ابنُ بطُّوطةَ في **وصْفِ تِلْكَ الأماكنِ القُدسيّةِ: المسجدِ الحـــرامِ والكعبـــةِ المُعظمـــةِ المُشرَّفةِ والحجرِ الأسودِ والمقام الكريمِ والحِجْرِ والمطافِ، وبئرِ زمزمٍ** المباركة، كما يُفيضُ فـــي الحديثِ عن شعائرِ الحجِّ: "فإذا كانَ اليومُ الســـابعُ من ذي الحِجّةِ خطبَ الخطيبُ إثْرِ صلاةِ الظُّـــهْرِ خُطبةً بليغةً يُعلِّمُ الناسَ فيها مناسِكَهم، ويُعلِمُـــهم

بيوم الوقْفةِ. فإذا كانَ اليومُ الثامنُ بكَّـــر النـــاسُ بالصُّعودِ إلى مِنًى، فإذا كانَ اليومُ التاسعُ رحَلــوا من مِنى بعدَ صلاةِ الصُّبْحِ إلى عرفَة، وعرفـــاتُ بسيطٌ من الأرْضِ فسيحٌ، تُحِدقُ بِهِ جِبالٌ كثـــيرةٌ، وفي آخرِ بسيطٍ عرفاتِ جبـــلُ الرحمـــةِ، وفيـــهِ الموقِفُ. وفي أسْفلِ هذا الجبلِ صهاريجُ وجِبـــلب لِلماء، وبمقْرُبةٍ منهُ الموْضِعُ الذي يقِفُ فيه الإمامُ ويخطبُ.. وإذا حانَ وقْتُ النَّفْرِ أشارَ الإمامُ بيدِهِ، ونزلَ عن موقِفِهِ، فدفَعَ الناسُ بالنَّفْرِ دفْعةَ ترْتَـــجُّ لها الأرضُ وترجُفُ الجبالُ، فيا لهُ موقفاً كريماً، ومشْهداً عظيماً، ترجو النُّفوسُ حُسْنَ عُقباه!".

ويتحدّثُ ابنُ بطُّوطة عن قيامِـــهِ بِمناسِـكِ حَجِّهِ فيقولُ:

"وكانَتْ وقْفتي الأولى يوم الخميـــسِ عـــامَ 726هــ، ولمَّا وقعَ النَّفرُ بعدَ غُـــروبِ الشـــمسِ وصلْنا مُزدَلِفة عنْدَ العِشاء الآخرة.. ولما صلَّيْنـــا الصُّبْحَ بمُزْدلِفةَ غدَوْنا منها إلــــى مِنـــى، بعــد الوقوفِ والدُّعاء بالمَشْعَرِ الحرامِ، ومن مُزْدلِفـــةَ يستصحبُ أكثرُ الناسِ حصياتِ الجِمارِ، وذلـــك مُستحبٌّ، ولما انتهى الناسُ إلى مِنـــى بـــادَروا لِرَمي جَمرة العقبةِ، ثم نَحَروا وذبحوا، ثُمَّ حلَقـوا وحلّوا من كُلِّ شيء إلا النساء والطِّيـــبَ، حتـــى يطوفوا طوافَ الإفاضةِ.."

ويُفصِّلُ ابنُ بطوطةَ الكلامَ على المناسِـــــكِ

تفْصيلَ عالمٍ فقيهٍ حريصٍ على تأديـــةِ المناســكِ

على خيْرِ الوجوهِ، حتى ينتهي إلى وصْفِ **كُسْوةِ**

الكعبةِ، وكانتْ كُسوتُها يومذاك تُرْسَلُ مِنْ مِصْرَ،

فتُوضعُ في يومِ النَحْرِ على سَطْحِ الكعبةِ، وتُسبَلُ

على جُدرانِ الكعبةِ في اليومِ الثالثِ بعــــدَ يــومِ

النَّحْرِ، وهي كُسْوة سوداء حالكةٌ مـــن الحريــر

مُبطَّنةٌ بالكتّانِ، وقد طُرِّزَ أعلاها وسائرُ جهاتِــها

بآياتٍ من القُرآنِ الكريمِ، مكتوبةٍ بالبياضِ، وبعـدَ

إكساءِ الكعبةِ تُشمَّرُ أذيالُ الكُسْوةِ صيانةً لها مــن

أيْدي النَّاسِ.

ولا يُغفلُ ابنُ بطُّوطةَ الحديثَ عن أهْلِ **مكة وعاداتِهِمْ** ومكارمِ أخْلاقِهِمْ، وإكرامهم للغُرباء في ديارهِمْ، وهو لا يكتُمُ إعجابه بظرْفهم ونظافةِ ملابسهِمْ، فيقولُ: "**وأهلُ مكةُ لهم ظرفٌ ونظافةٌ في الملابسِ**، وأكثرُ لِباسِهم البياضُ، فترى ثيابهم أبداً ناصِعةً ساطعةً، ويستعملون الطِّيب كثيراً، ويكْتحِلونَ، ويُكْثرونَ السِّواكَ بعيدانِ الأراكِ الأخْضَرِ، ونِساءُ مكةَ فائقاتُ الحسنِ، بارِعاتُ الجَمالِ، ذواتُ صلاحَ وعفافٍ، وهُنَّ يُكْثِرْنَ التطيُّبِ، حتى إنَّ إحداهُنَّ لتبيتُ طاويةً وتشتري بقُوتِها طيباً". وقد لاحظ ابنُ بطُّوطة أنَّ أهلَ مكةَ يتمتَّعونَ بصحةٍ حسنةٍ ورشاقةِ جسمٍ، وعلَّل ذلك

بأنَّهُمْ لايأكُلونَ في اليومِ إلا مــرّةً واحِــدة بعــدَ العَصْرِ، ويقْتصِرون على هذهِ الوجْبةِ، ومن أراد الأكلَ في سائِرِ النهارِ أكلَ التَّمْرِ!

وبعدَ أنْ قضى ابنُ بطُّوطةَ مناسِكَ حجِّهِ، لم يُفكِّرْ في القُفولِ إلى وطنِهِ، إذْ كانَ الشوقُ إلــى التَّجوالِ في الأرْضِ وارتيادِ البــلادِ واكتشــافِ المجْهولِ يعمُرُ قلبَهُ، ولهذا نجِدهُ ينضمُّ إلى ركبِ الحُجاجِ العائدين إلى العراق، ليبدأ مرحلةً جديــدة من مراحِلِ رحلتِهِ الطويلةِ.

المرحلة الخامسة

ابن بطُّوطة في العراق وفارس

كانَ رَكْبُ الحُجّاجِ العراقيين العائدُ إلى بلادِهِ ركْبـاً ضخْمـاً جامِعـاً، يضُـمُّ العِراقيين والخُراسانيين والفارسيينَ والأعاجمَ، ولا يُحْصى عددُهم، "تموجُ بهم الأرضُ موْجـاً، ويسـيرون سيْرَ السَّحابِ المُتراكمِ، فمنْ خرَجَ عن الركْـبِ لِحاجةٍ ولم تكُنْ له علامـةٌ يسـتدلُّ بـها علـى موضعهِ ضلَّ عنْهُ لِكثرةِ الناسِ" وكـانَ الرّكْـبُ مُزوَّداً بِكُلِّ ما يحتاجُ إليهِ المُسـافرون لِتوْفـير راحتِهم وسـلامتهم، "وهـم يسـيرون بـاللّيْلِ،

ويُوقِدون المشاعِلَ، فترى الأرضَ تتلألأُ أنــوار اً، والليلَ قد عادَ نهاراً ساطِعاً". وقد ظــلَّ الركــبُ يَطوي مراحِلَ الطريقِ مُنذُ **خُروجِهِ من مكةَ** فــي العشرين من ذي الحِجَّة عام 726 هـــــ مُــروراً بالمدينةِ المُنوَّرةِ، حيثُ نَعِمَ ابنُ بطُّوطةَ **بزيـــارةٍ ثانيةٍ لِقبْرِ الرَّســول** وروضتِــهِ، قبــلَ مُتابعــةِ المسيرةِ إلى أرْضِ نجدٍ، ومازالَ الرَّكْبُ يقطـــعُ البوادي والقفارَ حتى وصل إلى **أرض النَّجـــفِ** ونزلَ في مدينةِ (مشْهدَ عليٍّ بن أبي طالبٍ) وقــد وصَفَها ابنُ بطُّوطة بقولِهِ: "هي مدينةٌ حسنةٌ، في أرضٍ فسيحةٍ صُلْبةٍ، منْ أحْسنِ مـــدُنِ العِــراقِ وأكثرِها ناساً، وأتقنِها بناء، ولها أسواقٌ حســـنةٌ

نظيفةٌ" وكانتْ عامِرة بالمدارِسِ والعُلماءِ، وقد انفصلَ ابنُ بطُّوطةَ عن الرَّكْبِ العِراقيِّ، وبقيَ معَ بعضِ رفاقِهِ، مُعوِّلاً على مُشاهدةِ تلكَ البِلادِ والسِّياحةِ فيها، وهو يصِفُ في رحلَتِهِ القَبْرِ "يزْعمونَ أنَّهُ قبرُ عليٍّ عليه السلامُ" والحضرة التي فيها قبرُ الإمامِ، والتي يتقاطرُ عليها الزُوّارُ، وعِنْدها مدرسةٌ عظيمةٌ يسكنُها الطلبةُ والصوفيَّةُ من الشِّيعةِ، "ولكُلِّ واردٍ عليها ضيافةُ ثلاثةِ أيام من الخُبْزِ واللحْمِ والتَّمْرِ، مرَّتينِ في اليومِ" وكان سُكّانُ هذه المدينةِ من غُلاةِ الشيعةِ، ويُديرُ أمورَ المدينةِ نقيبُ الأشرافِ، كما يتولَّى تصريفَ شؤونِ أهلِها؛ وبعدَ أنْ قضى ابنُ

بطُّوطة حاجتهُ من زيارةِ القـــبرِ ووصـــفَ مـــا شاهدهُ هُناكَ من قناديلِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، وطسُوتِ ماء الوردِ والمِسْكِ وأنواعِ الطيبِ، وهـــيَ مـــن الذَّهبِ والفِضَّةِ أيْضاً، يغمِسُ الزائِرون أصابعـهم فيها تبرُّكاً، سافرَ ابنُ بطُّوطة صُحْبةَ رُفقةٍ كبيرةٍ مِنْ عَرَبِ خفاجةَ، وهم ــ كما يقولُ ــ "أهلُ تلكَ البِلادِ، ولهُمْ شوكةٌ عظيمةٌ وبـــأسٌ شـــديدٌ، ولا سبيلَ لِلسّفَرِ في تلك الأقْطارِ إلا في صُحبتِـــهِم" حتى بلغوا مدينةَ **(واسِط)**. وأهلُها كما يصفُـــهم "منْ خِيارِ أهلِ العراقِ، بل هُـــمْ خـــيرُهم علـــى الإطْلاقِ، أكـــثرهم يحفظـــونَ القُـــرآنَ الكريـــمَ ويُجيدون تجويدَه بالقراءةِ الصحيحة، وإليهم يأتي

أهلُ بلادِ العراقِ لِتعلُّمِهِ، وبها مدرسةٌ عظيمةٌ حافِلَةٌ، فيها نحْوُ ثلاثمائة خلْوةٍ ينْزِلُها الغُرباء القادمون لِتعلُّمِ القُرآنِ".

ومن واسِطَ رحلَ ابنُ بطُّوطةَ إلى مدينةِ (البصرةِ) فلقِيَ من أعيانِها كُلَّ ترحيبٍ، وأقام في ضيافةِ بعضِ عُلمائِها، وصلَّى الجُمعةَ في جامعِها الكبير، وأصْغى إلى الخطيبِ الذي كان يلْحَنُ في خطبتِهِ لحْناً كثيراً، وعجِبَ من أمرِهِ، وأفضى بدهشتِهِ إلى بعضِ القُضاةِ في البصرةِ فقالَ له: "**إنَّ هذا البلد لم يبقَ بهِ منْ يعْرِفُ شيئاً من علمِ النَّحْوِ!**" ويجدُ ابنُ بطُّوطةَ في ذلك موضِعاً للاعتِبارِ فيقول: "هذهِ عِبرةٌ لمَنْ تفكَّر

فيها، فسُبحانَ مُغيِّرِ الأشياءِ ومُقلِّبِ الأمور! هذه البصرةُ التي إلى أهلِها انتهتْ رياسةُ النَّحْوِ، وفيها أصلُهُ وفرعُهُ، ومِنْ أهلِها إمامُهُ الذي لايُنكرُ سبْقُهُ، لايُقيمُ خطيبُها خُطبةَ الجمعةِ على دُؤوبِهِ عليْها!"

ثُمَّ ركِبَ ابنُ بطُّوطةَ من ساحلِ البصرةِ قارِباً صغيراً نقلَهُ إلى (**الأبُلةِ**) وقد قال فيها: "كانتِ الأبُلّةُ مدينةً عظيمةً يقصِدُها تُجّارُ الهندِ وفارِسَ، فخربتْ، وهي الآن قريةٌ بِها آثارُ قصورٍ وغيرها دالةٌ على عِظمِها". ومنها انتقلَ الرَّحالةُ بَحْراً إلى مدينةِ (**عبّادان**) فوصَفها بكثرةِ المساجدِ والرِّباطاتِ المأهولةِ بالصالحينَ والعُبَّادِ.

وتابعَ طريقهُ لِزيارةِ بلادِ اللورِ في بلادِ فـــارسَ، فراحَ يجتازُ تلك الجبالَ الشامِخةَ حتى بلغَ مدينـــة (تُسْتر) التي يُحيط بها النـــهرُ الأزرقُ بمياهِـــهِ الصافيةِ، فنزل في ضيافةِ أحدِ أئمتِها سِتَّةَ عشـــرَ يوماً، وحضَرَ في بعضِها مجلسَ وعْظٍ لمُضيفِــهِ فأدهشهُ وفضَّلَهُ على جميعِ من سبقَ لهُ الاستماعَ إلى وعظِهِمْ من الأئمةِ فـــي الحجــازِ والشـــامِ ومِصْرَ!

وظلَّ ابنُ بطُّوطةَ يتنقلُ مـــن مدينـــةٍ إلـــى أُخْرى حتى بلَغَ مدينة (أصفهانَ)، وقـــد وصـــلَ إليها بُعيدَ العَصْرِ بعْدَ أن اجتـــازَ كثـــيراً مـــن البساتين والمياهِ والقُرى الحسانِ العامرةِ بـــأبْراجِ

الحمامِ، وقد وجَدَ أصْفهانَ مدينة مُتهدِّمةً، لِتوالي الفِتن بين أهلِها، وهم طائفتانِ من أهلِ السُّنَّةِ والرّوافِضِ (غُلاةِ الشّيعةِ)، وقد أعْجِب الرّحَّالةُ المغربيُّ بكثرةِ الفواكِهِ في أصْفهان، كما استْرعى انتباهه جمالُ أهلِها وشهامتهُمْ فقال: "وأهلُ أصفهان حِسانُ الصُّورِ، وألوانُهم بيضٌ زاهرة مَشُوبةٌ بالحُمْرةِ، والغالِبُ عليهم الشَّجاعةُ والنجْدةُ".

ثُمَّ زارَ ابن بطُّوطة مدينة (شيرازَ) فنالتْ عظيمَ إعجابِهِ وتقديرِهِ، **فراحَ يُقارِنُها بمدينةِ دمشق**، وقال فيها: "وليسَ في المشرقِ بلدة

تُداني مدينة دِمشقَ في حُسْنِ أسواقِها وبســـــاتينها وأنـهارها وحُسنِ صُوَرِ ساكنيها إلاّ شيراز".

وبعدَ زيارةِ شيرازَ غـــــادرَ ابـــنُ بطُّوطـــة (عِراقَ العجَمِ) في طريقهِ إلـــى (الكُوفـــةِ) عـــن طريق (**كازرُون ومدينة الزَّيديـــنِ والحُويْـــزاء**) **والكوفةُ** ـــ كما يصفُها ـــ إحدى أمَّهاتِ البِـــــلادِ العراقيَّةِ، وفيها مقابرُ الصحابَةِ والتابعينَ، ولكـــنَّ الخرابَ كان مُسْتولياً عليها عند وُصـــــولِ ابـــنِ بطُّوطة إليها، لِكثرةِ غاراتِ البدْوِ عليها، وتـــهدُّمِ سُورِها، وقد رحَلَ منها إلى مدينة (الحِلّة) وأهلُها من طائفةِ الشيعة الإماميةِ الاثنى عشريّةِ، وقـــــد شاهَدَ على مقربةٍ من سُوقِها الأعظمِ مسْجداً على

بابِهِ سِتْرُ حريرٍ مسدولٌ، وهم يسمونهُ مشهَدَ صاحبِ الزَّمانِ، ويعتقِدون أنَّ إمامهُم المُنتظر دخلَ هذا المسجِدَ وغابَ فيهِ، وأنَّهُ سيعودُ إليهم منه، ليقضي على الفسادِ والظُّلْمِ.

ومِنَ الكوفةِ اتَّجَهَ ابنُ بطُّوطةَ إلى **(بغْداد)** **ماراً بكَرْبلاء** التي استشهدَ الحُسينُ بنُ عليٍّ فيها، وقد زارَ **ابنُ بطوطةَ مشهدَ الحُسيْنِ** في روضةٍ على بابِها الحُجّابُ، وعلى الضّريح قناديل الذهبِ والفِضَّةِ، وعلى البابِ أسْتارُ الحريرِ.

وكانت **(بغْدادُ)** عندَ وصولِ ابنِ بطوطة إليها **مدينةً "قد ذَهبَ رسمُها، ولم يبْقَ إلا اسمُها"** ولقدْ طافَ الرحالةُ المغربيُّ في أرجائِها

وجوانبها، وتحدَّث عن مساجدِها ومدارسِها، وحمّاماتِها وقُصورِها، وأكثرُها نهْبٌ بأيدي الخرابِ، كما تحدَّثَ عن قُبورِ الخُلفاءِ وبعضِ العُلَماءِ والصالحينَ فيها.

ومن عاصِمةِ العباسيّين رحَلَ ابنُ بطّوطة إلى **الموصلِ**، وزارَ في طريقهِ مدينة **(سُرَّ مَن رأى)** "وقد استوْلى الخرابُ عليها فلم يبْق منها إلا القليلُ"، ومدينة **(تكْريت)** "وهي مدينةٌ كبيرةٌ فسيحةُ الأرجاءِ". أما الموصِلُ فقد شهدَ الرحالةُ عليها أسواراً منيعةً فوصفَها بقولهِ: "وعلى البلَدِ سُوران اثنانِ وثيقانِ، أبْراجُها كثيرةٌ متقاربةٌ.. ولم أرَ في أسْوارِ البلادِ مِثْلها" وأثْنى ابنُ بطّوطة

علـى أهْلِ الموصِلِ ومكارِمِ أخلاقِهِمْ، وإحْســـانِهِمْ إلـى الغُرباءِ وإكرامِهِم إيّاهُمْ.

وطافَ رحالتُنا بعدَ ذلِكَ في مُدُنِ (**نصيبيــنَ**) و(**سِنجار**) و(**ماردين**) ووصفَ هذه الأخيرةَ بأنَها من أحسنِ مُدُنِ الإسْلامِ وأبدعِها وأتْقنِها وأحسنِها أسْواقاً".

ثُمَّ عادَ ابنُ بطُّوطة إلى بغدادَ، لينضمَّ إلـــى ركْبِ حُجّاجِ العِراقِ، إذْ كانَ عازِماً على قضـــاءِ الفريضةِ للمرّةِ الثانية، وكان سُلْطانُ العِراقِ "أبو سعيد" أوعَزَ إلى أعْوانِهِ بتقديمِ العـــونِ للرحالـــةِ المغربيِّ، في سفرِهِ إلى الحِجازِ، فلقِي من عنايـــةِ أميرِ الرَّكْبِ مايُرضيهِ، وكانَ ابنُ بطُّوطةَ عنـــدَ

خُروجِ الرَّكْبِ من الكُوفةِ مُتعباً مريضـــاً، وقــد أصابهُ إسهالٌ عانى منه كثيراً في أثناءِ الرِّحلـــةِ، وأميرُ الرَّكْبِ العَراقيِّ يتفقَّدُهُ ويُوصي به، ولـــم يزَلْ مريضاً حتى وصلَ إلى مكةَ المُكرَّمةِ.

المرحلة السادسة

ابن بطُّوطة في الجزيرة العربيةِ

قضى ابنُ بطُّوطةَ مناسِكَ حجَّتِهِ الثانيةِ عامَ 727 هـ وهو مريضٌ، فلما انقضى الموسِمُ أقامَ مُجاوراً بمكَّةَ تلك السنة، حتى عُوفي من مرضِهِ، وتفرَّغَ لِلطوّافِ في البيتِ والعبادةِ والاعْتِمارِ، طوالَ تلك السنةِ، ثُمَّ حجَّ للمرةِ الثالثةِ عام 728 هـ وظلَّ بعدَها مُجاوراً بمكَّة، حتى قضى مناسكَ حِجَّتِهِ الرابعةِ عام 729 هـ، وتابع جواره لِلحرمِ عامَ 730 هـ وفي موسِمِ هذا العلمِ وقعتِ الفتنةُ بين أمير مكة وجُنْدِ الملكِ الناصِرِ

في الحرمِ، فغادرَ ابنُ بطُّوطة مكّة قاصِداً بـــلادَ اليمنِ عن طريقِ جدَّة، ومنها ركِبَ البحــرَ، لأوّلِ مرةٍ في حياتِهِ، وكانتِ الريحُ في اليومين الأوّليْنِ طيّبةً رُخاء، ثم تغـــيرتْ، فـأصبحت عاصفـــةً هوْجاء، وكادتْ سفينةُ ابنِ بطّوطة تضيـــعُ بيـــن تلاطُمِ الأمْواجِ، إلا أنّها حطّتْ بعدَ أهْـــوالٍ فـــي مَرْسى يعرفُ برأسِ دوائِر، ويقعُ بينَ **(عيْـــذاب)** و **(سواكنْ)** على ساحل بحرِ القُلــزُم **(الأحمـــر)** واكترى ابنُ بطُّوطة مع رفاقِهِ جِمالاً من سُـــكّانِ تلك الناحيةِ، وهم البُجاة، "سودُ الألوانِ، لباسُـــهم الملاحِفُ الصُّفْـــرُ، ويشُـــدُّونَ علـــى رؤوســـهِم عصائب حُمراً" إلى أن وصلوا إلـــى **(ســـواكن)**

ومنها ركِبوا البحرَ إلى اليمن، وبعدَ ستةِ أيامٍ نزلوا في مدينة **(حلي)** حيثُ لقيَ ابنُ بطّوطة أميرها، فاحْتفى بهِ، وكانا قد تعارفا في موْسِمِ الحجِّ السابِقِ، وأقام الرحالةُ المغربيٌّ في ضيافتِهِ أياماً، ثم ركِبَ البحرَ في مركْبٍ له في طريقهِ إلى مدينةِ (زُبيد) "وبينها وبين صنْعاء أربعونَ فرسخاً، وليسَ باليمن بعد صنعاء أكبرُ منها ولا أغنى من أهلِها" كما يقولُ، وهو يصِفُ أهلها بلطافَةِ الشمائلِ وحُسْنِ الأخْلاقِ وجمالِ الصُوَّرِ، ويُشيرُ إلى جمالِ نسائِها وحُسنهنَّ الفائِق، ويُثني عليهنَّ أطيبَ الثناءِ، وقد نزلَ ابن بطّوطةَ في زُبيد بضيافةِ فُقهائِها، فأكْرموهُ وأرَوْهُ بساتينهم

وحدائقِهِم. ثم سافرَ منـــها إلـــى مدينـــةِ (تعِــزّ) عاصمةِ ملك اليمنِ، "وهِيَ ، كما يقــولُ ــ مــن أحسن مُدُنِ اليمنِ وأعْظمِها، وأهلُها ذوُو تجـــبُّرٍ وتكبُّرٍ وفظاظةٍ"، وقد نزلَ فيها بضِيافةِ قـــاضي قُضاتِها وأقامَ عندهُ ثلاثة أيّامٍ، وفي اليومِ الرابـــعِ قدَّمهُ إلى السُّلْطان فسألهُ عن بـــلادِهِ والمواطِـــنِ التي زارها، ثُمَّ أمرَ بإكرامِهِ واستِضافتِهِ، فأقـــام في ضيافةِ سُلْطانِ اليمنِ أياماً، ثُمَّ ســـافر إلـــى (**صنْعاء**) وقد استرعى نظرَهُ فيها نُزول الأمْطارِ بها صيفاً، كما لاحظ أنَّ "مدينة صنْعاء مفروشـــةٌ (مُبلَّطةٌ) كلُّها، فإذا نزل المطـــرُ غســـلَ جميـــعَ أزقتِها وأنقاها"، وانتقل من صنعاء إلـــى **عـــدنٍ**،

ميناء اليمنِ الأكـــبرِ، وفيـــهِ ترْســـو المراكـــبُ العظيمةُ، ونزلَ ابنُ بطُّوطة في عدْنٍ في ضيافـــةِ أحدِ تُجّارِها، وأشارَ إلى ثراءِ التُجَّارِ فـــي هـــذهِ المدينةِ، وتفاخُرهمْ بكـــثرةِ أمْوالـــهِم ومُباهاتِـــهم بذلك. ثم عبَرَ ابنُ بطُّوطة البحرَ من عدَنٍ إلـــى مدينةِ (زيْلع) ــ في الصُّومالِ ــ وأهلُـــها ســـودُ الألْوانِ، وقد وجدَها "أقذرَ مدينةٍ في المعْمورِ" ثُـــمَّ رحلَ عنها بِطريقِ البحْرِ إلى (مَقْدَشو) فوصـــلَ إليها بعد خمسةَ عشر يوماً، ونزلَ فـــي ضيافـــةِ عُلمائِها، واصطحبَهُ قاضيها إلى لقاءِ سُـــلطانِها المُلقِّبِ بـــ (الشيخ) فأمرَ بإنْزالهِ بـــدارِ الطّلبـــةِ، المُعدّةِ لضيافتِهِمْ، وهي بمقرُبَةٍ من دارِ الشَّـــيْخِ،

وحُمِلَ إليهِ الطعامُ منها، وأقبل معهُ أحدُ الوزراء زيادة في الترحيبِ به، وقد لاحظ إفراطِ الناسِ هُناكَ في الأكْلِ وضخامة أجسامهم، ويوم الجمعةِ صحِبَ القاضي إلى الصلاةِ، وكان السُلْطانُ هناك في المسجدِ، فسلَّمَ ابنُ بطُّوطةَ عليهِ، ورحَّبَ السُلْطانُ بهِ وخاطبهُ بالعربية قائلاً: "قدِمتَ خير مقْدمٍ وشرَّفْتَ بلادَنا وآنسْتنا".

ثم رحلَ ابنُ بطُّوطةَ من أرْضِ الصُّومالِ عائداً إلى جنوبِ بلادِ العربِ مرة أُخْرى، وزارَ مدينةَ (ظفارِ) وهي آخِرُ بلادِ اليمنِ على ساحلِ البحرِ الهِنْديِّ، وبينها وبين (عدن) في البرِّ مسيرةُ شهْرٍ في صحْراء، وسُكّانها أهلُ تواضُعٍ

وأخلاقٍ حميدةٍ وإيثارٍ للغربـــاءِ وأكــثرُ أهلِــها يسيرون مكْشوفي الرُّؤوسِ، وهُمْ يُشبِهون أهـــل المغرِبِ في أمورٍ كثيرةٍ، وهذا التشـــابُه يُقــوّي القولَ بأنَّ صنْهاجةَ وسِواهُمْ من قبائلِ المغـــرِبِ أصلُهم من حِمْيرٍ.

ثم رحلَ ابنُ بطُّوطة إلى مدينةِ **(الأحْقـــافِ)** على مسيرةِ نصف يومٍ من ظفارِ، وفيها بســاتينُ الموْزِ وأشجارُ النَّارجيلِ المعروفِ بجوزِ الـــهِنْدِ، ثم تابَعَ ابنُ بطُّوطةَ رِحلَتِهِ حتى وصَلَ إلى بـــلادِ **عُمَانَ**، وأهلُها إباضيَّـــةُ المذْهَـــب (فرقـــةٌ مـــن الخوارِجِ) ولهم نجْدة وشجاعةٌ، والحربُ قائمـــةٌ فيما بينهُمْ أبداً، وقد لاحظَ ابنُ بطُّوطــــةِ أن مـــن

عادةِ الناسِ في (نَزْوا) **قاعدةِ عُمان** أن يأكُلوا في صُحونِ المساجِدِ، "فيأتي كُلُّ إنْسانٍ بِما عندهُ، ويجتمعونَ لِلأكْلِ في صحْنِ المسجِدِ، ويأكلُ معهُمْ الوارِدُ والصادِرُ!".

ثُمَّ سافرَ ابنُ بطُّوطةَ إلى بلادِ هُرْمُزَ، على الساحلِ الفارسيِّ، وتنقَّلَ هُناكَ حتَّى وصلَ إلى مدينةِ (سيراف) وأهْلُها من أشرافِ الفُرْسِ، وفيها طائفةٌ من عربِ بني سيافٍ، ومِنْهمْ أكثرُ الغوّاصين على اللؤلوِ، ومغاصُهُم بينَ سيرافَ والبحرين.

واجتازَ ابنُ بطُّوطةَ البحْرَ إلى البحرينِ، وانتقلَ منها إلى مدينةِ (القطيفِ) وأهلُها من غُلاةِ

الشِّيعةِ، ومنها إلى مدينة هجَر (وكانت **تُسمّى**
الحسا عند وصولِ ابنِ بطّوطة إليْها) وأهلُها
عربٌ، وانتقلَ منها إلى (اليمامةِ) وأكثرُ ساكنيها
من بني حنيفةَ، وفي صحبةِ أميرهم سافرَ ابنُ
بطّوطةَ إلى مكّةَ لِقضاءِ **فريضةِ الحجِّ للمرةِ**
الخامسةِ عامَ 732 هـ.

وبعدَ انتهاءِ موْسِمِ الحجِّ سافرَ ابنُ بطّوطةٍ
إلى جُدَّة ومنها إلى (عيْذابَ) على ساحلِ البحرِ
الأحْمرِ، وحثَّ خُطا سفرهِ في صعيدِ مِصْرَ،
وغادر الديارَ المصْريّةَ إلى الشامِ عن طريق
بُلْبيْس، واجتاز الطريقَ مروراً بأمَّهاتِ المُدُنِ
الشاميَّةِ حتى وصلَ إلى **اللاذقيّةِ**، ومن مينائِها

ركبَ البحر مُتّجِهاً إلى "برِّ التُركيَّـــةِ المعـــروفِ ببِلادِ الرُّومِ" ليبدأ مرحلةَ جديــــدة مـــن مراحِـــلِ رحلتِهِ الطويلةِ.

المرحلة السابعة

ابن بطُّوطة في بلادِ الروم وما جاورها

كان العثمانيونَ منذُ نِصْفِ قرن قبلَ وُصولِ ابنِ بطُّوطة إلى بلادِهم جادّين في بِناء دولْتِهم على أنْقاضِ الدولةِ السلجوقيَّةِ الرُّوميةِ، وهم أتْراك استوْلوا على جانِبٍ كبيرٍ من بلادِ الرُّومِ، وجعلوا مدينةَ (قُونية) عاصِمةً لهم، فخلفَهُمْ العثْمانيونَ الذين كانَ القدرُ قد أعَّدهُمْ لِنشرِ الإسْلامِ والانطِلاقِ بفُتوحاتِهِ إلى القُسطنطينيةِ وما وراءها.

نزلَ ابنُ بطُّوطة بعدَ إبْحارِهِ من اللاذقيّةِ في ميناءِ (العلايا) على الســـاحِلِ الجنوبـــيِّ لآســـيةَ الصُغْرى، وبدأ **طوافهُ بِبلادِ الأناضولِ**، مُلاقيـــاً من أهاليها التُرْكمانِ كُلَّ حفاوةٍ وإكْـــرامٍ، وقـــد لاحظَ أن نساءهم لايحْتجبنَ، وقد كُنَّ يهْرعْنَ إلى توديعِ الرّحالةِ المغْربيِّ وصحْبِهِ، باكيات لِرحيلهمْ مُتأسِّفات، وكأنَّ المسافرين من أهلِهنَّ وأقاربـــهنَّ. كما لاحظَ ابنُ بطُّوطةَ انتشارَ جماعاتِ الفِتْيـــانِ (**ويُسمُّونها الأخيّات**) في سائرِ مدُنِ الأنـــاضولِ التركيةِ وقُراه، وكـــانتْ تضُـــمُّ الشُـــبَّان غـــيرَ المُتزوجينَ من أبْناءِ المدينةِ أو القرْيةِ الواحِـــدةِ، فيُقدِّمونَ رئيساً، ويتعاونونَ جميعاً علــــى الــــبرِّ

والتقوى وإكرامِ الغُرباء والإحْسانِ إليهم، وقد لقيَ ابنُ بطُّوطة من رعايةِ هذه المُنظّماتِ ما يفيضُ في وصْفِهِ خِلال رحْلَتِه في تلك البلادِ، فقد كانَ الفِتْيانُ يتسابقونَ إلى استِضافةِ الرحَّالةِ المغربيِّ المُسْلِمِ ويتنافسونَ في إكرامِهِ وصحبِهِ أشدَّ الإكْرامِ، وقدْ أثنى عليهم أعظمَ الثناء وقال: "لله درّهُم من طائفة! ما أكرم نفوسهم وأشدَّ إيثارهم، وأعظمَ شفقتهم على الغريبِ، وألطفَهُمْ بالواردِ، وأحبَّهُمْ فيه، وأجملهُمْ احتِفالاً بأمرِهِ، فليسَ قُدوم الإنْسانِ الغريبِ عليهِمْ إلا كقُدومهِ على أحبِّ أهلِهِ إليْهِ!"

وآخِرُ المُدُنِ التي زارها ابنُ بطُّوطة في الأناضُولِ كانتْ مدينة **(صنُوب) على البَحْرِ الأسْودِ**، وهي مدينةٌ مُحصَّنةٌ يُحيطُ بها البحرُ من جميعِ جِهاتِها إلا جِهةَ الشرقِ، ويرْوي ابنُ بطُّوطة حادثةً طريفةً جرَتْ لهُ عِنْدما صلّى مع أصْحابِهِ مُسْبلي الأيْدي، على مذْهبِ الإمامِ مالِكٍ، وكانَ أهلُ صنُوب أحْنافاً فظنُّوا ابنَ بطُّوطةَ ورفاقَه من الرّوافِضِ، ولكِنَّهُمْ عندما أكلوا لحم الأرنبِ تبيّنَ أنَّهُمْ ليسوا منهم، وقد أقامَ الرَّحالةُ المغربيُّ أربعين يوماً في هذهِ المدينةِ، في انتِظارِ سفينةٍ تُقِلُّهُ إلى **شِبْهِ جزيرة القرْمِ**، ثم اكْترى مركباً للرُّومِ سافرَ عليهِ، وقد لقِيَ الأهْوالَ في

رِحْلَتِهِ البحريةِ تلك حتـــى نــزلَ ببــلادِ تابعــةٍ لِلمَغولِ، وكانَ هؤلاء المغُول بعدَ غزْوِهِمْ لِلعـــالمِ الإسْلاميِّ والكوارث التي أنْزلوها بهِ، قد اعْتَنقوا الإسْلامَ، وأصبَحوا من غُلاةِ المُتحمِّســـينَ لـــه، وراحَ ابنُ بطُّوطة يتنقَّلُ في **بلادِ المَغُولِ** علــــى عربةٍ يجُرُّها فرسانِ أو تجُرُّها الجِمالُ، وكـــانتِ الطرقُ آمنةَ المسالِكِ، إذْ كانَ المغُولُ يتشـــدَّدون في "مُلاحقةِ السُرَّاقِ واللُّصوصِ، وقـــد حظـــى الرَّحالةُ الكبيرُ بِمُقابلةِ خانِ المغولِ (سُـــلطانِهِمْ) محمد أوزْبكْ، ووصفهُ بقولِهِ: هذا السُّلْطانُ عظيمُ المملكةِ، شديدُ القُوَّةِ، كبيرُ الشأنِ، رفيعُ المكـــانِ، قاهرٌ لأعْداء الله أهلِ قُسطنطينية العُظمى، مُجتهدٌ

في جهادهم، وبلادُه مُتَّسِعةٌ، ومُدُنه عظيمةٌ: منها الكَفا والقرمِ والماجرُ وأزاق وسُوداقُ وخُوارزمْ، وحضرتُه (عاصِمتُه) السَّرا، وهو أحدُ الملوكِ السبعةِ الذين هم كُبَراءِ الدنيا وعُظماؤها" وهم: سُلْطانُ المغربِ، وسُلْطانُ مِصْرَ والشامِ، وسُلْطانُ العِراقِ، والسُّلْطانُ أوزبك خانُ المغُولِ، وسُلْطانُ بلادِ تُرْكستان وما وَراء النهرِ، وسُلْطانُ الهِنْدِ، وسُلْطانُ الصِّينِ.

وشهدَ ابنُ بطُّوطةَ احتفالات السُّلْطانِ بيومِ العيدِ ووصفَ موكبَهُ ومواكبَ نِسائهِ الأميراتِ (الخواتينِ والمُفْردُ خاتون) وبعدَ انقضاءِ العيدِ راحَ يتنقَّلُ معَ ركْبِ السُّلْطانِ حتى وصَلوا إلى

مدينةِ (الحاج تَرْخان) ــ وتُسمى اســـتراخان ــ وكانتْ إحدى زوجاتِ الخانِ، وهـــي الخـــاتُونُ بيلونُ، ابنةَ ملكِ الرومِ، وقد حظِيَ ابنُ بطُّوطـــة بلقائها وعطْفِها عليهِ، فسألتْ زوجَها أنْ يأذنَ لها بزيارةِ أبيها في القُســطنطينية، لِتضـــعَ حمْلَـــها عندهُ، وتعودَ إلى زوجها، فأذنَ لها، وانتهزَ ابـــنُ بطُّوطةَ الفُرْصَةَ السانِحةَ، فسألَ الخانَ أن يـــأذن لهُ في التّوجُّهِ إلى القُسْـــطنطينية فـــي صُحْبـــةِ الخاتُونِ، فتردَّدَ في الإذْنِ له، خوفاً عليهِ، ثُمَّ أذنَ لهُ وزَوَّدهُ بالمالِ والهدايا والأفْـــراسِ الكثـــيرةِ، وهكـــذا أتيـــحَ لِلرحّالـــةِ الإسْـــلاميِّ أن يـــزورَ **القُسطنطينيةَ العُظمى**، وأن يستقبلَهُ ملكُ الـــرومِ

في قصْرِه، ويأمُرَ بإكْرامِهِ، ويُيسِّر لَهُ الطَّــوافَ في العاصِمـــةِ العظيمـــةِ ومشــاهدةَ عجائبِــها وغرائِبِها، **ووصفِ ابنُ بطُّوطة المدينةَ** فقالَ إنَّها "مُتناهيةٌ في الكِبرِ، ومُنْقسِمةٌ إلى قِسْمينِ، بينــهما نهرٌ عظيم المدِّ والجزْرِ.. وأحدُ القِسميْنِ يُســمّى **اصْطنْبول**، وفيه سُكْنى السُّلْطانِ وأربابِ دولتِــهِ وسائرِ الناسِ، **والكنيسةُ العظمى (أيا صُوفيا)** في وسطِ هذا القسمِ من المدينةِ، وأما القسمُ الثــاني من المدينةِ فيُسمّى الغلطة، وهذا القســمُ خــاصٌ بِنصارى الإفرنج يسكنونَهُ" وقـــد أطــالَ ابــنُ بطُّوطــةَ فـــي وصــفِ أســواق القســطنطينية وشوارعها وكنيستِها العُظْمى وكانَ كُلٌّ من يلْقــاهُ

يسألهُ عن بيْتِ المقْدِسِ والمُقدَّسـاتِ المسـيحية فيها، وبعدَ خمسةِ أسـابيع مـن الإقامـةِ فـي القُسطنطينية رجَعَ الركبُ المُرافق للخاتونِ إلـى بلادِهِ، ورجَعَ معهُ ابنُ بطُّوطة، مُـزوَّداً بِـهدايا الخاتون الكثيرة، وقد آثرتِ البقاء في ديارِ أبيها؛ وبعدَ إقامةٍ قصيرةٍ في (السَّرا) عاصمةِ الخـانِ، عزمَ ابنُ بطُّوطة على السَّفَرِ إلى **خُوارَزَمْ** وركِبَ إليْها العرباتِ التي تجرُّها الجِمالُ، فـي بريـةٍ مُقفِرةٍ قطعَها في ثلاثين يوماً من السَّـيْرِ الجـادِّ حتى بلَغَ مدينة خُوارزَمْ، ولقِيَ أميرها، وهو ابـنُ خالةِ السُّلْطانِ محمد أوزبك خان، وقـد وجَدهـا مدينةً كُبْرى وعدَّها "أكبر مُدُنِ الأتْراكِ وأعْظمَها

وأجملَها وأضْخمَها" ووصفَ عمارتَها الكثيرة وازدحامَها بالسُكانِ، حتى إنَّهُ لم يكُنْ يستطيعُ التنقُّلَ في بعْضِ أسْواقِها، لكُثْرةِ الازدِحام. ومن خُوارزم رحلَ ابنُ بطُّوطة إلى **بُخارى**، وزار قبر الإمامِ البُخاري، ثم لَقِيَ سُلطانَ ماوراء النهْرِ – نهْرِ جيحون – وأقام في ضيافَتِهِ قُرابةَ الشهرين، وهو من أحفادِ جنكيز خان، وسافرَ بعد ذلك إلى **سمَرْقنْد وترْمذَ، واجتازَ نهر جيحُون إلى بلادِ خُراسانَ**، فزارَ مدُنَ **بلْخٍ وهراةَ وطوسَ ونيْسابور وبِسطام** قبل أن يصِلَ إلى مدينتيْ **(غزْنة)** و **(كابُل)** وقد كانتا من أعْظمِ المُدُنِ، ولكنهما عند زيارةِ ابنِ بطُّوطة لهما كانتا

خربَتيْنِ، ولم يبْق منـــهما إلا اليســـيرُ، ويســـكُنُ **(كابُل)** طائفةٌ من الأعْجامِ يُقالُ لهم الأفغانُ.

وفي بدايةِ عامِ 734 هـــ وصلَ ابنُ بطّوطـــة **إلى وادي البُنجابِ، وهو أولُ بـــلادِ السلْطانِ محمد شاه ملكِ الهندِ والسندِ**، لِيُتـــابِع مرحلـــةً جديدة من مراحِلِ رحلتِهِ الكبيرةِ فـــي أقـــاصي المعْمورِ.

المرحلة الثامنة

ابن بطُّوطة في الهندِ وجزُرِ الهنْدِ الشرقيةِ والصين

كانتْ فُتوحاتُ محمود الغزْنوي قبلَ ثلاثةِ قُرونٍ في شمالي الهندِ قد وطَّدتْ الطريقَ لِتَمَكُّنِ الإسْلامِ في تلك البِقاعِ، وغدا لِلمُسْلمين هناك إماراتٌ مُستقلةٌ، لم تلْبثْ أن توحّدتْ في ظلِّ حُكّامِ مدينةِ (دَهْلي) وأصبحتْ هذه المدينةُ عاصمةً لجميع البلادِ التي سكنها المُسلمونَ في شِمالِ الهِنْدِ، وإليْها كانَ يقصِدُ ابنُ بطوطةَ منذُ عُبورِهِ نهرَ البُنْجابِ، وعندما وصلَ إلى مدينةِ

(مُلْتان) سُئِلَ عن سبَبِ قُدومِهِ، إذ كان لايسمحْ لأحدٍ من خُراسان بدُخولِ الهِنْدِ إلا لمنْ يجيء للإقامةِ فيها، فأعلنَ أنَّهُ "**قدِمَ للإقامةِ في خِدْمةِ خوند عالم: أيْ سيِّد العالمِ**" والمُرادُ بذلك سُلْطانُ الهِنْدِ محمدُ شاه، وعندَما وصلَ إلى **(دهْلي)** ــ وبينها وبين مُلْتانِ مسيرةُ أربعين يوماً ــ لم يكُنْ السلطانُ في عاصمتِهِ، فأُدْخِلَ دارَ الضِّيافةِ، وبانتِظارِ عودةِ السلْطانِ تجوَّلَ ابنُ بطُّوطة في دهْلي وشاهَدَ عِظمَ مِساحتِها وعُمْرانِها، وسُورَها الذي لا نظيرَ لَهُ، وزار مسجدَها وهو من أعظمِ الآثارِ الإسْلاميَّةِ فيها، وكانَ قبلَ ذلكَ معبداً وثنياً فحوَّلوهُ إلى مسجدٍ، واسترعى نظرهُ ارتفاعُ

صوْمعةِ المسجدِ (مِئْذنتُهُ) فصعِدها فرأى إشرافَها على مُعْظمِ دُورِ المدينةِ وأسْوارِها، وظــهرَ لـــهُ الناسُ في أسْفلِها كأنَّهُم الصِّبْيانُ الصِّغارُ من شِدَّةِ ارتفاعِها.

وعِنْدما عادَ السلطانُ من ســفرِه استـقبلتهُ (دهْلي) استقبالاً حافلاً، فزُينتِ الفيلـــةُ ووُضِــعَ عليْها قِبابٌ من الخشبِ مكسوة بالحريرِ، وزُيِّنــتِ الشوارعُ التي يمرُّ فيها موكبُ السلْطانِ العـــائدِ إلى قصرهِ، وعندَ مرورهِ فيها كان أتباعُهُ يرْمون من فوقِ الفيلةِ بالدّنانيرِ والدَّراهِمِ، فيتسابقُ الناسُ إلى التقاطِها. **وتــهيّأ ابــنُ بطُّوطــة لِمقابلــةِ السُّلْطان**، وكانتِ التقـــاليدُ أن القـــادمين عليـــهِ

يُقدِّمون بين أيديهم هديةً لـــه، فيكافئُــهم عليـــها بِأضْعافٍ مُضاعفةٍ، وقد أصبحتْ هـــذه الهديـــةُ التقليديةُ موردَ رزقٍ للتُجّارِ ببلادِ السِّنْدِ والـــهنْدِ، إذ يقدِّمون للقـــادمين قُروضـــاً يُجَـهِّزون بـــها هداياهُمْ، ثم يردُّونـــها مـــن المُكافـــآتِ الســـخيةِ السُلطانيّةِ إليهم، فيربحُ التجارُ أرباحاً وفيرة؛ وقد سلك ابنُ بطُّوطة مسلكهُمْ، **وأعدَّ هديةً مُناســـبةً للسُّلْطانِ من الجِمال والخيْلِ والسُّيوفِ وبعـــضِ المماليكِ**، وحُدِّد لهُ اليومُ الرابـــعُ مـــن شـــوالٍ لِمُقابلتِهِ، وقد وصَفَ الرحالةُ العظيـــمُ اســـتقبال السلْطان محمد شاه لـــه فـــي قصـــرهِ الكبـــيرِ، وترحيبهُ به وقوله له بالفارسية "حلَّتْ البركـــةُ،

قدومُك مُباركٌ" وقد طلب منه أنْ يطمئن إلى الإقامة في الهنْدِ، ووعدَهُ بالعطاء الجزيل بقوْلِه: "أعْطيك من الإنعام ما يسمعُ بهِ أهلُ بلدِكَ فيأتونَ إليك" وكانَ السلطانُ مُحباً للغُرباء، حريصاً على الاستفادةِ من مواهِبهم وخبْراتهم في خِدمة مملكتهِ، فلم يلبثْ أنْ عيَّن ابن بطُّوطة قاضياً على دهْلي، وخصَّص له مُرتَّباً سنوياً كبيراً، وقال لهُ: "لاتحسبْ قضاء دهْلي من أصغرِ الأشغالِ، فهو أكبرُ الأشغال عندَنا" فأجابهُ: "يامولانا أنا على مذهب مالكٍ، وهؤلاء حنفيَّةٌ، وأنا لا أعرفُ اللسان" فعيَّن له السلطانُ بعض

المُعاونين ليُشاوروهُ وينوبــوا عنــه، وزادَ فـــي عطاياهُ له والإنعامِ عليهِ.

وهكذا اطمأنَّ ابنُ بطوطة إلى **الإقامةِ فـــي الهندِ**، وهو يصِفُ في رحلتِهِ ما شاهدهُ هُناك من **عجائبِ العاداتِ والتقاليدِ**، ومن أطرفِ ما شــاهَدَ **هُناك إحراقُ نساء الهُندوس أنفسهنَّ بعدَ وفـــاةِ أزواجهنَّ، ولندَع ابن بطُّوطة يروي ذلك بنفسه:**

"رأيتُ الناسَ يُهرعون مــنْ عســكرنا، ومعـــهم بعضُ أصحابنا، فسألتهم: ما الخبرُ، فـــأخبروني أنَّ كافراً من الـــهُنودِ مـــاتَ، وأُجِّجــتِ النـــارُ لإحْراقِهِ، وامرأتُهُ تُحْرِقُ نفسها معهُ، ولمّا احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقتِ الميِّتَ حتـــى

احترقت معه! وبعدَ ذلك كنْتُ في تلك البلادِ أرى المرأة من الهُنودِ مُتزيِّنةً راكِبةً والناسُ يتْبعونها، والأطبالُ والأبواقُ بين يديها، ومعَها البراهِمةُ، وهمْ كُبراء الهُنودِ، وإذا كان ذلك ببلادِ السُّلْطانِ (السلطان المُسلمِ) استأذنوا السُّلْطان في إحراقِها، فيأذنُ لهم فيحرقُونها.."

ويرْوي ابنُ بطُّوطة مشاهداتِهِ لإحْراقِ ثلاثِ نِسوةٍ من الهُندوس أنفسهن، بعد هلاكِ أزواجَهنَّ في بعضِ المعارك: "فاتفقْنَ على إحْراقِ أنفسِهنَّ، وإحراقُ المرأةِ بعدَ زوجِها عندَهم أمرٌ منْدوبٌ إليه (مُستحبٌّ) غيرُ واجب، لكنَّ من أحرقتْ نفسها بعد زوجِها أحرزَ أهلُ

ببيتِها شرفاً بذلكَ، ونُسِبوا إلــــى الوفــاء.. ولمَّـــا تعاهدت النِسْوة الثلاثُ على إحْراقِ أنفُسِهِنَّ أقمْنَ قبلَ ذلكَ ثلاثة أيامٍ في غِنـــاء وطـــربٍ وأكـــلٍ وشُرْبٍ، كأنّهُنَّ يُودّعنَ الدُّنْيا، وتأتي إليْهنَّ النساء من كُلِّ جهةٍ.. وفي صبيحةِ اليومِ الرابعِ أتِيَـــتْ كلٌّ واحدةٍ منهُنَّ بفرَسٍ فركبتْهُ وهــــي مُتزيِّنـــةٌ مُتعطِّرةٌ.. والبراهمةُ يحُفُّـــون بـــها، وأقاربُــها معها.. وكُلُّ إنْسانٍ يقولُ لها: أبلغي السلام أبـــي أو أخي أو أمي أو صاحبي، وهي تقولُ: نعَـــمْ، وتضْحك لَهُمْ. وركبتُ مع أصحابي لأرى كيفيـــة صُنعِهنَّ في الاحتراق، فسِرْنا معهُنَّ نحو ثلاثـــةِ أميالٍ، وانتهينا إلى موضعٍ مُظْلمٍ كثـــير الميـاهِ

والأشجارِ، مُتكاثِفِ الظِلالِ، وبين أشجارِهِ أربعُ قبابٍ، في كُلِّ قُبةٍ صنمٌ من الحِجارة، وبين القِباب صهريجُ ماء قد تكاثفتْ عليهِ الظِلالُ..

ولمَّا وصلْنَ إلى تلك القبابِ نزلنَ إلى الصِّهريج، وانغمسْنَ فيه، وجرَّدْنَ ما عليهنَّ من ثياب وحُليٍّ فتصدَّقْنَ بهِ، وأتيتْ كلٌّ واحدةٍ منهن بِثوبِ قُطْنٍ خشِنٍ غيرِ مخيطٍ، فرُبط بعضهُ على وسطِها، وبعضُه على رأسِها وكتِفِها، والنيرانُ قد أضْرمتْ على قُرْبِ من ذلك الصِّهريج، في موْضِعٍ مُنخفِضٍ، وصُبَّ عليها زيتُ السِّمسم فزاد في اشتعالِها، وهُنالِك نحو خمسةَ عشر رجُلاً بأيديهم حُزمٌ من الحطبِ الرقيق، ومعهُم

نحو عشرة بأيديهم خشبٌ كِبارٌ، وأهلُ الأطبـــالِ والأبواقِ وقُوفٌ ينظرون مجيء المـــرأةِ، وقـــد حُجبتِ النارُ بمِلْحفةٍ يُمسكُها الرجالُ بأيديهم، لئلا يُدهِشُها النظرُ إليها لكيلا ترتعب مـــن رؤيتِـــها) فرأيتُ إحداهُنَّ لمَّا وصلت إلـــى تلـــك الملحفـــة نزعتها من أيدي الرِّجالِ بعنفٍ وقالتْ لهم وهـــي تضحك:

ـ أبالنَّار تُخوفونّي، أنا أعلـــمُ أنـــها نـــارٌ مُحرقةٌ! ثم جمعتْ يديها علـــى رأسِـــها خِدْمـــةً (صلاة) لِلنارِ، ورمَتْ بنفْسِها، وعِنْد ذلك ضُرُبَتْ الأطبالُ والأنفارُ والأبْواقُ، ورمى الرِّجـــالُ مـــا بأيديهم من الحطبِ عليها، لِئلا تتحرَّك، وارتفعتِ

الأصْواتُ، وكثُرَ الضجيجُ، ولمّا رأيتُ ذلك كِـدْتُ أسقُط عنْ فرسي، لولا أصحابي الذين تداركوني بالماء، فغسلوا وجهي، وانصرفتُ".

ومرَّت قُرابةُ تِسْع سنواتٍ على إقامةِ ابنِ بطُّوطة في الهِنْدِ، في خِدمةِ سُلْطانِها، حتى ساءتِ العلاقاتُ بينهما يوماً، لزيارةِ ابن بطُّوطة للشيخِ شهابِ الدين، فلمَّا غضِبَ السُلْطان على الشيخ وقتلَهُ، همَّ بِعقابِ ابنِ بطُّوطة، وكان السُّلْطانُ مع كرمِهِ وحُبِّهِ للغُرباءِ شديدَ البطش والفتكِ والولوغِ في الدِّماءِ، فخاف ابنُ بطُّوطة على نفسِهِ، وانقبَضَ عن الخدمَةِ السُّلطانيةِ، وتصوَّفَ واعتكفَ في بعضِ الزوايا، وراح

يُوالي العِبادةَ والصومَ وتصدَّقَ بأكثرِ مــــا كــان يملِكُ، ولَبِسَ زيَّ الفُقراء (الصوفيةِ)، فلما عـرفَ السلطانُ ما آل إليه أمــرُهُ اسـتدعاه، ولاطفــهُ، وطلبَ منه الرجوع إلى الخدمةِ، فاعتذرَ وســألَهُ أن يأذنَ لهُ بالحجِّ، فأذِنَ لَهُ، وتابعَ ابن بطّوطــةَ اعتكافَهُ في أواخِرِ جُمادى الثانية عام 742 هــــ في بعضِ الزوايا مُدَّة أربعين يوماً، كــان يقــرأُ القُرآن خِلالها كُلَّ يومٍ، ويتهجَّدُ ويتعبَّدُ ويكْتفــي بالقليل من الطَّعامِ، ثم أرســلَ إليــه السُلطان يستدعيهِ، وبعثَ إليه "خيْلاً مُسرَجةً، وجــواري وغلْماناً وثياباً ونفقةً" فلما مَثُلَ بين يديْهِ زادَ فــي إكْرامِهِ وأعلمهُ بأنَّهُ اختارهُ لِما يعلمُ مــن حُبِّــهِ

للأسْفارِ والترْحالِ، ليكونَ رَسولاً عنهُ إلى ملِكِ الصِّينِ، مع وفْدٍ من رجالِهِ يحْمِلون منهُ هديةً إلى (القانِ) ردّاً على هديةٍ كانَ بعثَ بِها إلى السُلْطانِ محمد شاه مَعَ وفدٍ صينيٍّ كبيرٍ، وكانتْ فُرصةً ذهبيةً ليزورَ ابنُ بطُّوطة بلادَ الصينِ، فرحَّبَ بها، وتحرَّكَ ركْبُ السَّفرِ في 17 صفر 743 هـ من دهْلي، وقد انضمَّ إليه الوفدُ الصيني العائدُ إلى بلادِهِ.

إلا أن **طريقَ ابنِ بطُّوطة إلى الصِّينِ تمتدُّ طويلاً، بعدَ تنقُّلٍ في شِبْهِ جزيرةِ الهنْدِ، وجُزُرِ ذيْبة المَهْلِ (المالْديف) وسِيلانَ وجاوه، قبلَ أنْ يُبْحرَ إلى الصينِ**، وهو يصِفُ في رحْلَتِهِ حياةَ

السُكَّانِ في هذه الجزُرِ وصْفاً مُفصَّلاً فيه مـــــادةٌ غزيرةٌ وطريفةٌ.

فأما جُزر ذيبةِ المَهْلِ (المالْديف حالياً) فـــهي إحْدى عجائب الدُّنيا، كما يقولُ، وهي نحوُ ألفـــيْ جزيرةٍ صغيرة، وأهلُها كلُّهم مسلمون، يعيشـــون في صَلاحٍ وتُقًى وهُدوء، والزواجُ من نســـائِهم سهْلٌ ميسورٌ، وقد أقام ابنُ بطّوطــــة فـــي هـــذهِ الجُزُرِ عاماً ونصفَ العامِ، وتزوَّجَ ابنـــةَ أحـــدِ الوُزراءِ فيها، وحملهُ الوزيرُ على تقلُّدِ منْصِـــبِ القضاءِ رغْبةً في الاستفادةِ من فِقْهـــهِ وعِلْمِـــهِ، فأتيحَ لهُ بذلِكَ أنْ ينهضَ بعددٍ من الإصْلاحـــاتِ الاجتماعيَّةِ في تلك الجُزُرِ.

ثمَّ رحلَ منها إلى جزيرةِ (سيلان) وصعِدَ فيها جبلَ (سرنديبَ) لِيرى موْطئ قدمِ أبي البشرِ آدمَ عنْدَ هُبوطِهِ من السّماءِ، فيما يقولُون، وقد استرْعى نظرهُ في هذهِ الجزيرةِ أمران: **كثرةُ القرودِ** فيها **وكثرة أحجارِ الياقوتِ** المُلوَّنِ، وقد شاهَدَ بنفسِهِ أحجاراً كبيرة من الياقوتِ، في حجْمِ الكفِّ، موْضوعةً في خزائنِ سُلْطانِها.

وأخيراً سافر ابنُ بطُّوطة إلى جزيرة جاوة، وعِندما رآها على مسيرةِ نصفِ يوْمٍ إليها من البحْرِ أعْجبتْهُ بخُضرتِها ونضْرتِها وكثرةِ شجرها، ثم نزل فيها واتَّجهِ إلى **عاصمةِ سُلطانِها (سومطْرة)** وهي مدينةٌ حسنةٌ عليها

سُورٌ وأبراجٌ من خشبٍ، وأقـــامَ فـــي ضيافـــةِ السلْطانِ خمسةَ عشرَ يوماً، وبِعونٍ منه سافرَ ابنُ بطُّوطة إلى الصِّينِ في مركبٍ جهّزه لـــهُ وزوّدَهُ بكُلِّ ما يلْزمُ الرحّالة العظيم في إبحارِهِ إلى آخـــرِ بلادِ العالمِ الإسْلاميِّ في الشرقِ.

كانتِ الصينُ في نظر المُسْلمين تُمثِّلُ أقصى الأرضِ المعْمورةِ، ولكن التجارَ المُسْلمين كـــانوا يصِلونَ إلى موانِئِها، وفي القرنِ الهجريِّ الثـــاني استنْجَدَ حاكمُ الصِّينِ بالخليفةِ المنصورِ العبَّاســـيِّ للقضاءِ على بعضِ الثُّوَّارِ فأمدَّهُ بفِرْقةٍ من الجُنْـــدِ الإسْلامي، وقد آثر أفرادُها البقاء في الصِّين بعدَ انتهاء مُهمتِهم العسكريةِ، غير أن صِلةَ المُسْلمينَ

بالصينِ ازدادَتْ توثّقاً قُبيْلَ زيارةِ ابنِ بطّوطة لها، **ففي القرنِ السابِعِ الهجْريّ دخلَ المغولَ تلك البِلادَ، وتحولّوا إلى الدينِ الإسْلامي، ففتَحوا الطريق بذلك للمُسْلمين للدُّخولِ إلى الصِّينِ**، وأصبحتْ جالياتٌ كثيرة منهم تقْطنُ في مُدُنِ الصِّينِ الهامَّةِ، وغدا لهم كيانُهم الخاصُّ، وقد وصَفَ ابنُ بطّوطة حياةَ هذهِ الجاليات الإسْلاميةِ عندما زارَ الصّين وطافَ في بعضِ أنحائِها.

وجدَ ابنُ بطّوطة "إقليم الصينِ مُتّسعاً، كثيرَ الخيْراتِ والفواكِهَ والزَّرْعِ والذَّهَبِ والفِضَّةِ، لا يُضاهيه في ذلِكَ إقليمٌ من أقاليمِ الأرْضِ" كما

وجدَ المَرْسى الذي رسَتْ فيهِ سفينتُهُ عند مدينةِ (الزَّيْتونِ) "من أعظمِ مراسي الدُّنْيا، أو هو أعظمُها" واتَّصلَ رحَّالتُنا بالمسلمينَ في هذهِ المدينَةِ فقدَّموهُ إلى سُلْطاتِها التي أكرمتْ وِفادتَهُ وأنزلتهُ في منزلٍ حسَنٍ، وكانَ فرحُ الجاليةِ الإسْلاميةِ في المدينةِ بهِ عظيماً، وكان التُجَّارُ المُسلمون هُناك "إذا قَدِمَ عليهم المسلمُ فرِحوا به أشدَ الفرَحِ، وقالوا: جاء مِنْ أرضِ الإسْلامِ، ولهُ يُعْطونَ زكواتِ أموالِهِمْ، فيعودُ غنياً كواحِدٍ منهم" ثُمَّ طافَ ابنُ بطُّوطة في الصين، **ورأى في كُلِّ مدينةٍ يزورُها حيّاً خاصًّاً بالمُسْلمين**، لهم فيهِ مساجدُهم ومرافِقُهم، وهم مُعظَّمون ومُحْترمُون.

وقد استرعى انتباهَهُ نفاسةُ **الفُخّارِ الصينيّ**، **وضخامةُ الدَّجاجِ في الصينِ، وكثرةُ الحرير** فيها حتى ليُبتاع الثوبُ الواحدُ من القُطْنِ بالأثوابِ الكثيرةِ من الحريرِ! كما أشار إلى استعمالِ أهلِ الصِّينِ للأوْراقِ النَّقْديَّةِ بدلاً من العُملةِ الفضيّةِ أو الذهبيَّةِ، فإذا تمزَّقتْ تلكَ الأوراقُ في يدِ أحدِهم حَملَها إلى دارِ السِكَّةِ فأخذ عِوَضاً عنها أوراقاً جُدُداً، ولا يدْفعُ على ذلك أجراً، لأنَّ الذين يتولَّون هذا العملَ لهم المُرتَّباتُ من قِبَلِ السُّلْطانِ.

على أنَّ أشدَّ ما أعجبَ ابنُ بطُّوطةَ في الصِّينِ **براعةُ أهلِها في التَّصْويرِ** "فلا يُجاريهم

أحدٌ في إحْكامِهِ من الرُّومِ ولا من سِواهُمْ، فإنَّ لهُمْ فيهِ اقتِداراً عظيماً" وهُوَ يقولُ: "ومن عجيبِ ما شاهدْتُ لهم من ذلك أني ما دخلتُ قط مدينةً من مُدُنِهِم ثم عُدتُ إليها **إلاّ ورأيتُ صُورتي وصُورَ أصحابي منقوشةً في الحيطانِ والكواغِدِ** (الأوْراقِ)، موضوعةً في الأسواقِ".

وبعدَ وصُولِ ابنِ بطُّوطةَ إلى الصِّين بأيامٍ جاء أمرُ السُلْطانِ (القانِ) بإكْرامِهِ وإشْخاصِهِ إلى حضْرتِهِ، فجهَّزوا لهُ مركباً حسَناً من مراكِبِ الأُمراءِ، سارَ في النَّهْرِ أيّاماً حتى وصَلَ إلى (الخَنْسا) وهي كما يقُولُ "**أكبرُ مدينةٍ رأيتُها على وجهِ الأرْضِ.. وهي سِتُّ مُدُنٍ، على كُلِّ مدينةٍ**

سُورٌ، ويُحدِقُ بالجميعِ سُورٌ واحدٌ" ثم تابعَ الرِّحلةَ إلى مدينة (خان بالِق) ـ وهي بكين اليوم ـ عاصِمةُ القانِ، والقانُ هو سُلطانُ الصينِ الأعْظمُ، الذي مملكتُه بلادُ الصِّينِ والخِطا، وقدْ وجدَها رحَّالتُنا "من أعظمِ مُدُنِ الدُّنْيا" وقصْرُ القانِ فيها في وسطِ المدينةِ، وأكثرُ عِمارتِهِ بالخشبِ المنْقوشِ، غير أنَّ القانَ كان غائباً عن عاصِمتهِ عندَ وُصولِ ابنِ بطُّوطة إليْها، لأنَّهُ كان قد خَرجَ بجيْشِهِ لقِتالِ ابنِ عمِّهِ فيْروزَ الثائرِ عليهِ، وبعد أيامٍ من وُصولِ ابنِ بطُّوطةَ وردَ الخبرُ بمصْرعِهِ، فأُعلنَ الحِدادُ وعمَّ الحُزنُ، ونُصِحَ الرحَّالةُ بِمُغادرةِ إقليمِ الخِطا قبلَ

أن تشتدَّ الفِتْنةُ، فعادَ بِمركبِهِ من الطريــق التـــي جاء فيها، إلى مدينةِ الزيتونِ، على عجلٍ، حيــثُ كانتْ سُفُنٌ فيها تهُمُّ بِمُغادرَتَها إلى الهِنْدِ، وفيـــها سفينةٌ لِسُلطانِ جاوة، ورُكَّابها مـــن المُسْــلمينَ، فرحَّبوا بابن بطُّوطةَ، وسافَرَ معهُمْ، ولكنَّ السفينةَ تاهتْ في البِحارِ قبلَ أن تَصِلَ إلى **جـــاوة**، وقد رحَّب سُلطانُها بعوْدةِ الرحَّالة العظيمِ إلى بـــلادِهِ، فأقامَ في ضيافَتِهِ شهرين قبلَ أنْ يُودِّعَـــهُ عـــائِداً إلى الهِنْدِ، وعندَ وُصولِهِ إلى **(كوْلَمَ)** رحلَ منـــها إلى **(قالِقوط)** ومن مينائِها ركـــبَ البحـــرَ إلـــى الخليج العربيِّ، فوصَلَ إلى **(ظفارِ)** في المُحـــرَّم عام 748هـــ وتابعَ رِحلتَهُ فـــي **إقليـــمِ هُرْمُـــزَ**،

وكانتْ محسوبةً من بلادِ عُمان، حتى وصلَ إلى شيرازَ، مُتابِعاً سفرَهُ في **مُدُنِ فارِس** قبلَ أن يصِلَ إلى البصرةِ فبَغْدادَ التي وصلَ إليْها في شَّوالٍ من ذلك العامِ، ثم تابعَ طريقَهُ على الفُراتِ إلى **رحْبةِ مالكِ بن طوقٍ**، ومنها سافَرَ إلى تدْمرَ، فدِمشقَ، التي وصلَ إليها **بعد مغيبهِ عَنْها عِشرين سنةً كاملةً** كما يقولُ.

المرحلة التاسعة

عودةِ ابن بطُّوطة إلى المغربِ والأندلُس

كانَ ابنُ بطُّوطةَ عام 749 هـ مايزالُ في ديارِ الشامِ عندما **وقعَ الوباء**، وسمعَ الرحَّالةُ بأخبارِهِ وهو في **حَلَبَ**، فغادَرها على نيَّةِ العودةِ إلى وطنِهِ، وعندما وصلَ إلى **دمشقَ** كانَ عددُ الموتى من الوَباءِ قد انتهى إلى 2400 في اليومِ الواحِدِ، وتابعَ سفرَهُ إلى **بيْتِ المقْدِسِ**، وكانَ الوباءُ قد ارتفعَ عنها وبوصُولِهِ إلى **غزَّة** التي بدأ الوباء منها، وجدَ ابنُ بطُّوطةَ المدينة خاليةً من

مُعْظمِ أهلِها، لِكثرةِ مَنْ ماتَ منهم فـــي الوبــاءِ (فكان 1100 من أهلِها يموتون في اليوم).

وتابَعَ ابنُ بطُّوطةَ طريقهُ إلى **الإســـكندريةِ فالقاهرةِ**، ليجِدَ جميعَ مـــن كـــان يعْرفُــهُ مــن مشايخِها قد ماتوا في الوباء!

وتابعَ الطريقَ إلى **الصَّعيدِ**، ومن (**عيْــذابَ**) ركبَ البحْرَ إلى **جُدَّةَ**، ومنها إلى **مكَّةَ المُكرَّمـــة** فوصلَ إليها في 22 من شعبان عام 749 هــــــ، وبقي فيها حتى الموسمِ فأدَّى فريضةَ الحجِّ قبـــلَ أن يعودَ إلى **القاهِرةِ** من جديدٍ.

وهنا، وبعدَ رُبْعِ قرْنٍ من التَّجْوالِ الدائِـــبِ والطَّوافِ في الأرْضِ، أحسَّ الرحَّالةُ البعيدُ الهمَّةِ

بالحنينِ إلى وطنِهِ ومسقَطِ رأسِهِ، وقد بلغَـــهُ أنَّ السُّلْطانَ المَرينيِّ أبا عنانٍ في المغربِ الأقْصـــى قد فاضَ إحسانُه على الخاصِّ والعامِّ، فعزمَ على العودةِ إلى بلادِهِ، فركبَ البحرَ في صفرٍ من عام 750 هـــ إلى مدينةِ **تُونُس**، حيثُ نزلَ في ضيافةِ سُلْطانِها أبي الحسن من بني عبدِ الحقِّ أكثرَ مــن شهْرٍ، قبْلَ أن يُتابِعَ رحلتَهُ البحريةِ إلى **تِلِمســان**، ومنها سلَكَ طريقَ البرِّ عن طريق (**تـــازا**) إلـــى مدينةِ فاس، عاصمةِ بني مرينٍ، فوصَلَ إليْها في أواخِرِ شعبانَ، حيثُ نَعِمَ بإحْسانِ السُّلْطانِ أبـــي عِنانٍ وإكْرامِهِ، إذ استقبلهُ أحسن استِقْبالٍ وأغرقَهُ بالعَطايا، مِمّا أطلقَ لِسانَهُ بالثَّناءِ عليْهِ، وتمجيـــد

فضائِلِه وتعْدادِ مزاياهُ؛ ثم أذِنَ لهُ بالسفَرِ إلى مسْقطِ رأسِهِ، فزارَ (**طنْجةَ**) وقبْرَ والدتِهِ فيها، ثم توجَّهَ منها إلى (**سَبْتَةَ**) وعبَرَ البحرَ منها إلى **الأندلس**، ولم تطُلْ زيارتُهُ لها، فقدْ كانَ ما تبقَّى لِلمُسلمينَ من البلادِ فيها جُزْءاً يسيراً: وقد نزل ابنُ بطوطةَ في جبلِ الفتْحِ (**جبلِ طارِقٍ**) وانتقل إلى (**رُنْدةَ**) وكانتْ يومَذاك من أمنَعِ معاقِلِ المُسْلمينَ، ورحلَ منها إلى (**مالَقَةَ**) وشاهد مسجدَها فوجدهُ "كبيرَ الساحةِ، شهيرَ البركةِ، وصحنُهُ لانظيرَ لَهُ في الحُسْنِ" ثم انتَهى إلى (**غِرْناطةَ**) وكانتْ يومَذاكَ عاصمةَ بني الأحمرِ، آخرِ الدُّويْلاتِ الإسْلاميَّةِ في الأنْدلُسِ، ولم يتمكَّنِ

الرحَّالةُ الكبيرُ من لِقاء سُلْطانِها أبــــي الحجــاج يوسُف، لِمرضٍ ألمَّ بهِ، ولَقِي جُملةً مـــن فُقَــهاءِ غِرْناطة وعُلمائِــها، وحدَّثَــهُمْ بأخبــارِ رحلَتِــهِ الطويلةِ، فأنِسوا بها، قبل أنْ يُغادرَ عاصِمةَ بنــي الأحمرِ **عائداَ إلى المغربِ**، لِيتنقَّلَ فـــي مدُنِــهِ: مرّاكُشَ ومِكناسةَ وغيرهما، في رِكابِ السُّــلْطانِ المريني العائدِ إلى عاصمتِه في فاسٍ.

ولكنَّ إقامةِ الرحَّالةِ في فاسٍ لم تطلْ هـــذهِ المرةَ أيْضاً، فقد عاودَهُ الحنينُ إلى الرحيلُ، فعزمَ على السفرِ إلى بِلادِ السُّودانِ، وودَّعَ السُّـــلْطانِ المرينيِّ ليقومَ برحلَتِهِ الأخيرةِ، في نهايةِ مطافِــهِ الطويلِ.

نهاية المطاف

ابنُ بطُّوطة في السُّودان

كانَتْ نهايةُ مطافِ جوّابِ الآفاقِ ابنِ بطُّوطةَ في رحلَتِهِ إلى **السُّودان الغرْبيِّ** وتنقُّلِهِ خِلالَ أقلَّ من سنتيْنِ في **المُدُنِ التي وصلَ إليها الإسْلامُ**، عن طريقِ القوافِلِ التجاريَّةِ التي كانتْ تقطعُ إليها الصحراء الكُبرى بينَها وبينَ المغْرِبِ، وفي القرنِ الخامِسِ الهجريِّ، وفي عهْدِ يوسُفَ بن تاشفين، أحَدِ أُمراء دولةِ المُرابطين ازدادتِ الصلةُ بينَ المغربِ وتِلْكَ

البِلادِ، وأصْبحَ سُكَانُها يدخلـــونَ فـــي ديـــن الله أفْواجاً، ونشأتْ مُدُن جديدة لم تلبَـــثْ أنْ غـــدَتْ مراكَزِ لِتعليمِ الإسْلامِ يتوافدُ عليها الطلبةُ وعُلماء الدين، **مثلَ مدينةِ (تُمبكتُو) التـــي زارهـــا ابـــنُ بطّوطة ووصَفها وركِبَ منها في نـــهرِ النيجـــرِ** الذي يبعُدُ أربعةَ أميالٍ عنها، وقدِ التبـــسَ علـــى رحَّالتِنا الأمرُ، **فظنَّهُ نهر النِّيلِ**، لاقتِرابِ بحـــرِ الغزالِ، وهو أحدُ فروعِ النيلِ، من نهْرِ النيْجـــرِ، وقد ظلَّ الناسُ على هذا الوَهْمِ إلى أواخِرِ القـــرْنِ الثاني عشرَ الهجريِّ، حينَ تمَّ اكتِشـــافُ منـــابِعِ النيلِ الحقيقيةِ.

غادرَ ابنُ بطُّوطةَ مدينة **فاسٍ إلى سجلْماسَةَ** "**التي تُشبه مدينـة البصْرة في كثرةِ تمرها**" وتهيَّأ فيها لِقطعِ الصَّحْراءِ، ثم سافَرَ منها في أوَّلِ يـومٍ من عام 753 في رِفْقةِ بعضِ القوافِلِ التجاريـــةِ، فوصَلَ بعد خمسةٍ وعشرينَ يوماً إلـــى **(تَغـــازا)** وهي قريـةٌ "بيُوتُها ومسجدُها من حجارةِ المِلْــحِ، وسُقوفُها **من جُلودِ الجِمالِ**" ثُمَّ تابعَ الرِّحْلةَ إلـــى مدينـةِ **(أيوالاتنْ) أولى مُدُنِ السُّودانِ**، فدخلَها بعدَ شهرينِ كاملَيْنِ من خُروجهِ من سَجَلْماسةَ، ونزلَ في ضيافةِ أهلِها مُدَّة خمسينَ يوماً، وقد اسـترعى نظرَهُ أنَّ نساءها جميلاتٌ فائقاتُ الجمـــالِ، وأنَّ الرجالَ فيها لا غيْرَةَ لديهم على نِسائِهِم، وهُنَّ لا

يحْتَشِمْنَ من الرِّجالِ ولا يحْتَجِبْنَ، مع أنَّهُنَ مُسْلِماتٌ مُواظِباتٌ على صَلَواتِهِنَّ، ومِمَّا أثار استغرابَ ابنِ بطُّوطةَ أنَّ الرجلَ هُناكَ ينتسِبُ إلى خالِهِ لا إلى أبيهِ، وأن الإرْث يكونُ لأبناء الأُختْ دون البنين، وذلك شيء ما رآهُ في طوافِهِ في الدُّنْيا إلا في بَعْضِ بلادَ كُفَّارِ الهِنْدَ! فأمَّا هؤُلاء فهُمْ مُسْلِمون مُحافِظون على الصَّلَواتِ وتعلُّمِ الفِقْهِ وحفظِ القُرآنِ الكريمِ!.

ثُمَّ اتَّجَهَ ابنُ بطُّوطةَ إلى مدينةِ **(مالي) أكبرِ مُدُنِ السُّودانِ** وأعْظمِها شأناً، وبينَها وبيْنَ (أيوالاتن) مسيرةُ أربعةٍ وعشرينَ يوماً، وهي **عاصِمة مِلِكِ السُّودان**، فوصَلَ إلْيها في الرابِعِ

عشرَ من جمادى الأولى، وأقام في بيتٍ اكتراهُ فيها، وشهِدَ عيديِ الفِطْرَ والأضْحى، ولم يُغادِرْها إلا في الثاني والعشرين من مُحرَّمِ عام 754 هـ

وكانَ في المدينةِ **جاليةٌ كبيرةٌ من أهْلِ المغربِ ومِصْرَ، تُقيمُ في حيٍّ خاصٍّ بها**، وقد لقِيَ رحّالتُنا الكبيرُ منها كُلَّ احتفالٍ وتكريمٍ، أما سلْطانُ مالي فلمْ يلْقَ ابنُ بطُّوطةَ من إكْرامِهِ الشيءِ اللائِقِ إلا بعْدَ أنْ تصدَّى له في بعضِ مجالسِهِ، بمُناسبةِ شهرِ رمضانَ، وقال له: "إنِّي سافرْتُ في بلادِ الدُّنْيا، ولقيتُ مُلوكِها، ولي بِبلادكَ أربعةُ أشْهُرٍ، ولم تُضِفْني ولا أعْطيْتني شيئاً، فماذا أقولُ عنكَ عندَ السَّلاطين؟".

ووصَفَ ابنِ بطُّوطةَ لِمملكةِ مالي وعاداتِ أهلِها في معاشِهِم وأعيادِهم وحياتِهِم الاجتماعيةِ طريفٌ حقّاً، ومِنْ خلالِهِ نرى سُكّانَ مالي على حظٍّ وافِرٍ من الذكاءِ وحذقِ الصناعاتِ والشُّهْرةِ بالأمانةِ، والحِرْصِ على نشْرِ الإسْلام، ويُعدِّدُ رحالتُنا مزاياهُم ومساوئَهُمْ، مِمَّا يدُلُّ على دراستِهِ لأحْوالِهمْ بعينِ الفاحِصِ الخبيرِ المُنْصِفِ، الحريصِ على ذِكْرِ ما لهُمْ وما عليْهِمْ.

ثم غادرَ ابن بطُّوطةَ مدينة مالي قاصِداً (تُمْبُكْتو) فلمّا وصلَ معَ رِفاقِهِ إلى شاطىءِ نهرِ النيْجِرِ شاهدَ عدداً من أفْراسِ البحرِ، وقد ظنَّها في بادىء الأمْرِ فيلةً، فوصَفَها بقولِهِ: وهي أغلظ

من الخيْلِ، ولها أعْـــرافٌ وأذْنــابٌ، ورؤوسُـــها كرُؤوس الخيْلِ، وأرجُلُها كأرْجُلِ الفيلةِ، ووصَــفَ طريقةَ اصطيادِ النَّاس لَـــها، ليَذْبحوهــا ويــأكُلوا لحْمها، وقد كانتْ عِظامُها مُنتشِرة علــــى طــولِ الشاطىءِ هُناكَ.

وفي مدينةِ (**تُمْبُكْتو**) رأى أهلَـــها يضعــونَ اللِّثامَ على أفْواهِهِم، ومِنْها **ركِبَ نهرَ النيْجرِ إلــى مدينةِ (كَوْكَوْ)** وهي من أحسنِ مُـــدُنِ السُّـودانِ وأخْصبها، فأقامَ فيها شهْراً، ثُمَّ سافرَ منــها إلــى (**تَكدّا**) في البرِّ بِرفقةِ إحْدى القوافِلِ، وهي مركــزٌ تجاريٌّ يتعاطى أهلُـــها التجــارةَ مــع مِصْــرَ، ويتفاخَرونَ بِكُثْرةِ عبيدهمْ وجواريهمْ، وفيما كــانَ

ابنُ بطُّوطةَ في هذهِ المدينـــةِ **تلقَّـــى أمْــراً مـــن السُّلْطانِ المَرينيِّ أبي عِنانٍ بالعودةِ إلى فـــاسٍ، فعادَ إلى المغْرِبِ**، ووصلَ إلى العاصمةِ المرينيَّـــةِ بُعيْدَ عيدِ الأضْحى من عامِ 754 هـ، وراح يُمْلي على كاتِبِ السُّلْطانِ أحْداثَ رِحلاتِهِ، في مراحِلِـها الطويلةِ التي استمرَتْ ثمانيةً وعشـــرين عامـــاً، وقطع خِلالَها نحْواً من مائةٍ وعشرين ألفـــاً مـــن الكيلو مترات، وقدْ فرغ الكاتبُ من تسجيلِها فـــي صَفَرِ عام 757 هـ.

وبقيَ ابنُ بطُّوطـــة بعدَهـــا ينعـــمُ بِرعايـــةِ السُّلْطانِ لهُ وتكريمهِ إيّاه، خِلال العقدِ الأخير مـــن شيخوختِهِ، إلى أن لَقِيَ ربَّهُ عام 770 هـ، وقـــد

ضمِنَتْ لهُ رِحلتُهُ العظيمةُ الشهْرةَ والمجدَ والخُلود في زُمرةِ المُبرِّزين الخالدين من الأعْـــــلامِ فـــي الشرْقِ والغربِ.

المحتوى

أعلام مبرّزون

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

١ – الاسكندر الأكبر
٢ – هنيبعل
٣ – أبو العلاء المعري
٤ – ابن بطوطة
٥ – ابن خلدون
٦ – كريستوف كولومبوس
٧ – وليم شكسبير
٨ – نابليون بونابرت
٩ – ليون تولستوي
١٠ – المهاتـ

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والمصورات
بيروت - لبنان - ص.ب ٦٩١٨ / ١١
حلب - سوريا - ص.ب ٤١٥